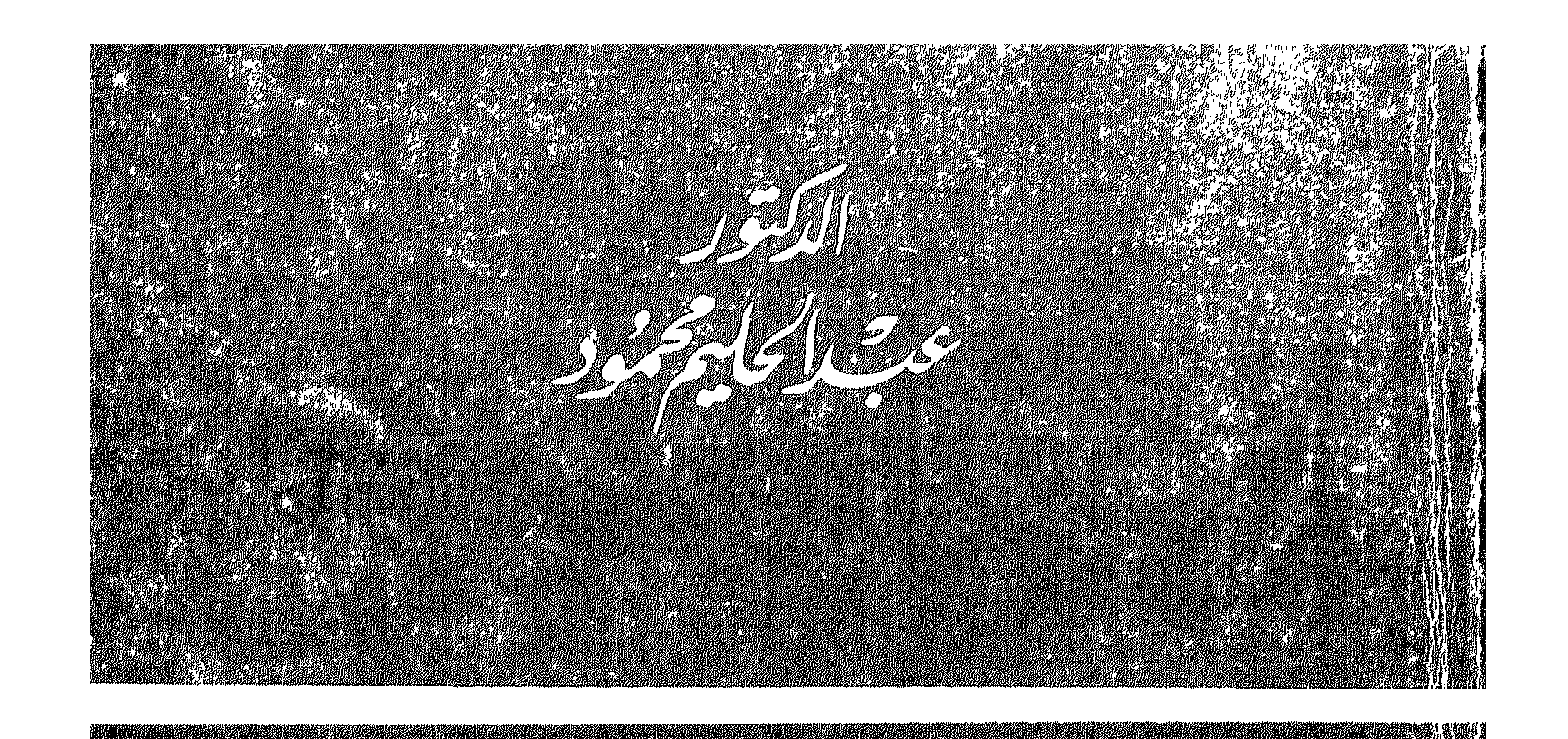



# العارف بالله
# إبراهيم بن أدهم
## شيخ الصوفية

2



الدكتور
عبد الحليم محمود

# العارف بالله
# إبراهيم بن أدهم
## شيخ الصوفية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

# التصوف والحياة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين. وبعد:

إن من الحقائق التى لا مرية فيها أن الإنسان لا يتأتى له أن يلج باب الله، أو يسير فى الطريق إليه، إلا بالعبودية الخاصة لله وحده لا شريك له، فإذا ما تمخضت العبودية لله سبحانه، وأصبح الإنسان من عباد الله المخلصين، وحقق بذلك: ﴿إيَّاك نعبدُ، وإيَّاك نَستعين﴾، فإن الله سُبحانه لا يجعل للشيطان عليه من سبيل:

﴿إنَّ عبادِى ليس لكَ عليهم سُلطان، وكَفَى بربك وكيلًا﴾[1].

ويعترف إبليس بأنه عاجز عن أن يضل من حقق العبودية الصادقة لله سبحانه فيقول:

﴿فَبِعزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُم أجمعين، إلَّا عبادَك منهم المخلَصين﴾[2].

---

(١) الإسراء: ٦٥.

(٢) ص: آية ٨٢، ٨٣.

ويقول:

﴿رَبِّ بما أغويتنى لأُزينَنَّ لهم فى الأرضِ ولأُغْوِينَّهم أجمعين * إلا عبادَك منهم المخلَصِين﴾[1].

وإذا ما حقق الإنسان العبودية لله، فإن الله يتولاه بالإمداد بالمعرفة، إنه سبحانه يقول عن موسى وفتاه:

﴿فوجَدَا عبدًا مِنْ عِبادنا آتيناهُ رحمةً من عندنا، وعَلَّمناه مِنْ لَدُنَّا علمًا﴾[2].

إنه حقق العبودية، فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله بالرحمة، وأن يفيض عليه العلم..

وليست المعرفة وحدها هى ثمرة التحقق بالعبودية، بل إن للتحقق بالعبودية ثمارًا كثيرة سامية، فأيوب عليه السلام، يقول الله عنه:

﴿وَاذكُرْ عبدنا أيوب إذْ نادَى ربه أنى مَسَّنِىَ الشيطانُ بِنُصْبٍ وعذاب.. اركُض برِجْلك هذا مُغْتَسَلٌ باردٌ وشراب.. ووهَبْنَا له أهْلَهُ، ومِثْلَهُم معهم، رحمةً منا وذِكْرَى لأُولى الألباب، وخُذْ بيدك ضِغْثًا فاضْرِب به ولا تَحْنَثْ، إنَّا وجدناه صابرًا، نِعْمَ العبدُ إنه أوَّاب﴾[3].

ولقد حقق سيدنا رسول الله ﷺ العبودية كاملة تامة، لقد حققها فى

---

(١) الحجر: ٣٩، ٤٠.
(٢) الكهف: آية ٦٥.
(٣) ص: آية ٤١ - ٤٤.

ذروتها، فكانت صلاته، وكان نسكه، وكانت حياته بأكملها، وكان موته، لله رب العالمين.. لا شريك له:

﴿قل إنَّ صلاتى ونُسُكى ومحيايَ ومماتِي لله رَبِّ العالمين، لاشَرِيكَ له، وبذلك أُمِرْتُ، وأنا أَوَّلُ المسلمين﴾[1].

لقد حققها موفورة تامة، فآتاه الله عز الدنيا والآخرة.

ومتابعة لرسول الله ﷺ، واقتداء به، سار الصوفية على الدرب، يقول صاحب «عوارف المعارف»:

الصوفى: هو الذى يكون دائم التصفية، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار، بتصفية القلب عن شوائب النفس..

ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه.. فبدوام الافتقار ينقى من الكدر.. وكلما تحركت النفس، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة، وفر منها إلى ربه..

فبدوام تصفيته جمعيته، وبحركة نفسه تفرقته وكدره، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه، قال الله تعالى:

﴿كُونوا قَوَّامِينَ لله، شُهداء بالقِسْطِ﴾[2].

وهذه القوامية لله على النفس، هى التحقق بالتصوف[3].

ويقول فى موضع آخر:

«والصوفى يضع الأشياء مواضعها، ويدبر الأوقات والأحوال كلها

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٦٢، ١٦٣.

(٢) سورة المائدة: آية ٨.

(٣) عوارف المعارف جـ ١ ص ٢٠٨ بتحقيقنا.

بالعلم، يقيم الخلق مقامهم، ويقيم أمر الحق مقامه، ويستر ما ينبغى أن يستر، ويظهر ما ينبغى أن يظهر، ويأتى بالأمور فى مواضعها، بحضور عقل، وصحة توحيد، وكمال معرفة، ورعاية صدق وإخلاص»[1].

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالتأسى بالرسول ﷺ، فيما دق من الأمور، وما وضح منها.. وفى اليسير من أعمالهم، والعظيم منها.. ومن أمثلة ذلك.

**فى الجهاد:**

ولا يتأتى أن نذكر تاريخًا مفصلا لجهاد الصوفية الحربى، ولكننا نكتفى هنا ببعض الأمثلة:

كان شقيق البلخى، وهو من قمم الصوفية الشامخة، يسارع إلى خوض المعارك.. لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه.

انظر إليه: خائضًا المعارك، محاربًا العدو، مسلحًا بإيمانه، وثقته فى الله، وعدته الحربية.. شاهرًا سيفه، فارسًا بكل ما تتطلبه كلمة الفروسية من معنى، هادئًا، مطمئنًا، كامل الثقة فى الله.

ولقد وصلت ثقته بالله، إلى حد أنه - وهو لا يرى إلا سيوفًا مصلتة، ورقابًا تقطع، ورءوسًا تسقط، يقول لمن بجواره فى هذا الجو:

كيف ترى نفسك؟ أترى نفسك فى سعادة تشبه سعادتك فى الليلة التى زُفت فيها امرأتك إليك؟

فأجابه الذى بجواره: لا والله.

فقال شقيق: لكنى والله.. أرى نفسى فى هذا اليوم، مثلها فى الليلة التى زُفت فيها امرأتى إلىَّ.

---

(١) عوارف المعارف جـ ١ ص ٢٣٢ بتحقيقنا.

لقد كان سعيدًا بجهاده.. ومات شهيدًا فى معركة الشرف والبطولة فى ساحة الحرب والجهاد.

وشخص آخر – هو من قمم الصوفية أيضًا – إنه حاتم الأصم:

كان يدخل المعارك، ويخوضها فى غير خوف ولا فزع.. وما كانت نفسه تطير شعاعًا من الأبطال.. وما كان يقول لها: لن تراعى..

لقد كان كيانه كله فى ثقة مطلقة بالله.. وهذه الثقة تتمثل أجمل ما يكون التمثل حينما أخذوه أسيرًا، وطرحوه أرضًا، وجثم العدو على صدره ليذبحه.

إنه يصف شعوره وهو فى هذه الحالة فيقول:

«لم يشتغل به قلبى، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فىَّ.. فبينما هو يطلب السكين التى يذبح بها، أصابه سهم فقتله.. وقمت سليمًا معافى. قام سليمًا معافى، ليعاود المعركة من جديد.

وإذا قفزنا فى ساحة الزمن قفزة واسعة، فوصلنا إلى معركة المنصورة فإننا نجد كبار المؤمنين، وصفوة الصوفية فى قلب المعركة.

لقد تركوا بيوتهم وأسرهم، وهبُّوا مندفعين إلى المنصورة، ليساهموا فى النصر، والاستشهاد فى سبيل الله، ولتكون الجنة تحت ظلال سيوفهم.

ولقد كان – وهذا له أهميته الخاصة – أبو الحسن الشاذلى – وهو من صفوة الصفوة الصوفية – قد تجاوز الستين، وكان قد كُفَّ بصره، ومع ذلك فإنه ترك بيته، وذهب إلى المنصورة، مساهمًا فى المعركة بقدر استطاعته.

لقد كانت المعركة شغله بالنهار، وشغله بالليل.. لقد كانت تشغله مستيقظًا، فيمر بسمته الوقور، وبهيبته المستمدة من تقواه، وبالنور يشرق من وجهه بين الجنود مشجعًا، حاثًّا، مبشرًا بالنصر وبالجنة، فإذا ما جنَّه

الليل، أخذ يبتهل إلى الله سبحانه وتعالى، متضرعًا. خاشعًا، راجيًا التوفيق والنصر للأمة الإسلامية.

وفى ليلة من الليالى، رأى رسول الله ﷺ - فى رؤيا طويلة - وأصبح رضى الله عنه يبشر بالنصر..

ولم تكن هذه هى الموقعة الأولى التى ساهم فيها أبو الحسن الشاذلى - رضى الله عنه - ولم تكن الأخيرة.

وإذا ما قفزنا مرة أخرى - فى ساحة الزمن - قفزة واسعة، فإننا نلتقى بالصوفى الشهير: عبد القادر الجزائرى.

كان من كبار الصوفية، ومن كبار القادة فى الحرب، ولقد حارب الاستعمار فى الجزائر، وفعل بإيمانه القوى، وصوفيته العميقة الأعاجيب، فى الشجاعة والإقدام.

ولقد بدأ الحرب بأفراد قلائل، سرى إيمانه وإقدامه فيهم، فتمثلت فيهم الشجاعة فى أسمى مظاهرها، وأخذ عددهم يزداد شيئًا فشيئًا على مر الأيام.

أما أسلحتهم: فقد كانت ما يأخذونه من أسلحة العدو.

ولقد وجه الأمير عبد القادر النداء تلو النداء للأمة الإسلامية، من أجل العون المالى، والإنسانى، ومن أجل العون فى العتاد، فكانت المساعدات التى قُدمت إليه مخجلة يندَى لها الجبين.

ولم تشعر الأمة الإسلامية، بأنها أمة واحدة، وكأنها لم تسمع ولم تقرأ قول الله سبحانه وتعالى:

﴿إن هذه أُمَّتكُمْ أُمَّةً واحدة، وأنا رَبُّكم فاعبدون﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٩٢.

وقوله تعالى:

﴿وإنَّ هذه أُمتكم أُمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون﴾[1].

إن الأمة الإسلامية لم تتجاوب معه تجاوب الإخوة، وكأنها لا تشعر بقوله تعالى: ﴿إنَّما المؤمنون إخْوة﴾[2].

ولا تحس بالإحساس الإسلامي.

«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ولا يخذله»[3].

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[4].

«ترى المؤمنين فى توادهم، وتراحمهم، كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[5].

ولم يثن كل ذلك الأمير عبد القادر، عن متابعة الحرب والكفاح ضد المستعمر.. وحينما أُسر - كرمه الأعداء أنفسهم، لشجاعته وشهامته ومروءته - ولما حالت الظروف القاهرة بينه وبين الجهاد والتضحية الحربية - وذلك بعد الأسر - مكث فى دمشق يدرس التصوف، متخذًا - الفتوحات المكية كتابه المفضل فى الشرح والتفسير.

ولقد طبع هذه الفتوحات، وفى أثناء إقامته بدمشق ألف كتاب المواقف، وهو كتاب فى التصوف عريق، بين فيه وجهة النظر الصوفية فى مختلف الموضوعات.

---

(١) سورة المؤمنون: أية ٥٢.

(٢) سورة الحجرات: آية ١٠.

(٣) مسلم.

(٤) الإمام البخارى.

(٥) رواه البخارى.

## فى التزام الشريعة:

أما فيما يتعلق بالتزام الشريعة، فإننا نبتدئ بذكر كلمة «للإمام الكامل، الفقيه الأصولى، المفسر، الإسفرايينى» صاحب كتاب: «التبصير فى الدين» - وهو من أئمة أهل السنة، المعنيين أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة، إنه يذكر ما يمتاز به أهل السنة، عن غيرهم من الخوارج، والروافض والقدرية، فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو:

«علم التصوف والإشارات، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق، لم يكن قط لأحد من «أهل البدعة» فيه حظ، بل كانوا محرومين مما فيه: من الراحة والحلاوة، والسكينة والطمأنينة.

وقد ذكر: «أبو عبد الرحمن السلمى» من مشايخهم قريبًا من ألف، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم.. ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى شىء من بدع «القدرية، والروافض، والخوارج».

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض، والتبرى من النفس، والتوحيد بالخلق والمشيئة.

وأهل البدع ينسبون الفعل، والمشيئة، والخلق والتقدير، إلى أنفسهم، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد».

بعد هذا نبدأ فى النظر إلى طريق التصوف، وصلته بالشريعة:

يقول الإمام الغزالى:

«إن الطريق إلى ذلك إنما هو: تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى.

ومهما حصل ذلك، كان الله هو المتولى لقلب عبده، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم.

وإذا تولى الله أمر القلب، فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور فى القلب، وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية، فليس على العبد إلا الاستعداد، بالتصفية المجردة، وإحضار الهمة، مع الإرادة الصادقة، والتعطش التام، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة».

وعن هذا الطريق، يقول ابن خلدون:

«وقد كان الصحابة، رضى الله عنهم، على مثل هذه المجاهدة، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية.

وفى فضائل أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، رضى الله عنهم، كثير منها، وتبعهم فى ذلك أهل الطريقة، ممن اشتملت رسالة القشيرى على ذكرهم، ومن تبع طريقتهم من بعدهم».

هذا فيما يتعلق بالطريق.

أما فيما يتعلق بالموضوع، والشعور، والأحوال.. فإن الصوفية – على وجه العموم – نبهوا فى صور حاسمة إلى وجوب التزام الشريعة، يقول أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه:

«من دعا إلى الله تعالى، بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو بدعى».

ويقول:

«إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس فى الجماعة، فلا تعبأ به».

ومن أجمل كلماته فى هذا، قوله:

«ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة.. فمن أعطيهما، وجعل يشتاق إلى غيرهما، فهو عبد مفتر كذاب، أو ذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب، كمن أُكرم بشهود الملك على نعت الرضا، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب، وخلع الرضا».

وكل الصوفية ينهجون هذا النهج.. ومن هؤلاء مثلًا: أبو يزيد البسطامى الذى يقول فى قوة حاسمة، وفى منطق صادق:

«لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات، حتى يرتقى فى الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة».

ولقد تحدث الإمام الجنيد أكثر من مرة، فيما يتعلق بالصلة بين التصوف والشريعة.. ومما قاله فى ذلك:

«الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ، واتبع سنته، ولزم طريقته».

وقال أيضًا:

«من لم يحفظ القرآن، لا يُقتدى به فى هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة».

ولقد كان الإمام الغزالى، فى سلوكه، وفى قوله.. فى حياته الخاصة والعامة، يلتزم الشريعة، ويقول: إن المحققين قالوا:

«لو رأيت إنسانًا يطير فى الهواء، ويمشى على الماء، وهو يتعاطى أمرًا يخالف الشرع، فاعلم أنه شيطان».

والواقع: أن المثل الأعلى للصوفية على بَكْرة أبيهم، إنما هو رسول الله ﷺ. وهم يحاولون باستمرار أن ينهجوا نهجه، وأن يسيروا على منواله – فهو إمامهم الأسمى فى كل ما يأتون، وما يدَعُون، وهم يتابعونه مهتدين فى ذلك بقول الله سبحانه وتعالى:

﴿لقد كان لكُم فى رسولِ الله أُسوة حسنَة، لمن كان يرجُو الله واليومَ الآخِر، وذكَرَ الله كثيرًا﴾[1].

وبعد: فقد تبيَّنا مما سبق أن الطريق إلى الله هو التحقيق بالعبودية، وقد سار الصوفية – ومنهم ابن أدهم – فى هذا الطريق، فأثمر لهم ثمارًا سامية كثيرة.

منها: الجهاد.

ومنها: التزام الشريعة.

وماذا بعد ذلك؟

أما عن الصوفية والعلم:

فإن الصوفية يمثلون العلم الإسلامى فى قمته وفى جميع فروعه: فى الفقه، وفى التفسير، وفى الحديث، وفى الأخلاق..

وإذا أردنا أن نتحدث عن القمة العلمية الشامخة التى لا تضارع فيما اجتمع لديها من علوم مدروسة مرواة محكمة فيها الإتقان، والاستنتاج المتبصر، والتبصر المتابع، والاتباع الواعى، أعنى شخصية الشيخ الأكبر محيى الدين، فإن الحديث عنها يستغرق مجلدات.

وإن مقارنات مؤرخى الفكر بين الشيخ الأكبر وغيره من الغربيين والشرقيين تصعد به إلى القمة.

---

(١) الأحزاب: ٢١.

والشيخ الأكبر يُذَكِّر دائمًا بحجة الإسلام الغزالى الذى جمع فى إحيائه، أربعين كتابًا كل منها له استقلاله وله ذاتيته، وألف منها - فى إحكام محكم - كتابه إحياء علوم الدين.

ولقد انهار تحت قلمه فى سهولة ويسر عباقرة الفكر الفلسفى، فتهافتوا وانهاروا، وأتى عليهم كتابه النفيس: «تهافت الفلاسفة».

وأخمد حجة الإسلام بدعة الفلسفة وعبث الفلسفة فى الشرق الإسلامى. وللإمام الغزالى أكثر من ثمانين كتابًا ورسالة فى الأصول والفقه والتوحيد والفلسفة والتصوف.

ولا تزال كتبه تُقرأ وتُتَدَاول وعليها دائمًا طابع النضرة: طابع الخلود.

والصورة الجميلة فى الصوفية - فى الأغلب الأعم - هى صورة الجنيد:

لقد كان الكتبة (اللغويون والأدباء) يحضرون مجلسه لألفاظه والفقهاء لتقريره.

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه.
والمتكلمون لتحقيقه.
والصوفية لإرشاداته وحقائقه.

يقول صاحب الرسالة القشيرية عنه:

وكان فقيهًا على مذهب «أبى ثور»، وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة.

ويروى صاحب الرسالة القشيرية عن أبى الحسين على بن إبراهيم الحداد يقول:

حضرت مجلس القاضى أبى العباس بن شريح، فتكلم فى الفروع والأصول بكلام حسن عجبت منه، فلما رأى إعجابى قال:

أتدرى: من أين هذا؟

قلت: يقول به القاضى.

فقال: هذا ببركة مجالسة أبى القاسم الجنيد.

وإذا ذُكر الجنيد ذكر أستاذه: الحارث المحاسبى، وقد كان الحارث مثقفًا فى الدين والعربية، كأحسن ما يكون المثقف، لقد كان فقيهًا، وكان محدثًا، وكان متكلمًا، وكان عالمًا فى الأخلاق، وكان صوفيًّا.

ولقد دخل فى قوة فى كل المشاكل التى وجدت فى عصره باحثًا مرشدًا مجادلًا هاديًا إلى الحق، والحق فى نظره هو ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

وألَّف المحاسبى الكثير من الكتب فى شتى مجالات العلوم.

وليأخذ الإنسان أى صوفى من هؤلاء الذين ذكرهم السلمى فى طبقاته، أو الذين ذكرهم القشيرى فى رسالته، أو الذين تحدث عنهم صاحب الحلية: فسيجد أنهم قوم اتخذوا من العلم عبادة، وعكفوا على دراسته تقربًا إلى الله سبحانه وتعالى.

وما كان علم الكتب هو غايتهم الأخيرة، وإنما – مع علم الكتب – كان طموحهم إلى العلم الوهبى:

العلم الذى يمنحه الله لبعض عباده، العلم الذى سافر موسى عليه السلام سفرة شاقة مجهدة ليلتقى فى نهايتها مع عبد من عباد الله تعالى علمه الله من لدنه علمًا.

يقول سبحانه عن موسى وفتاه:

﴿فوجَدَا عبدًا مِنْ عبادنا آتيناهُ رحمةً مِنْ عندنا وعلَّمْنَاهُ من لَدُنَّا عِلمًا﴾[1].

وهو علم يمنحه الله لمن حقق له العبودية.

ولأن هذا العلم - وهو مطمحهم الأخير - لا يتأتى إلا بإخلاص العبودية لله، ولأن إخلاص العبودية لله لا يتأتى إلا بأن يكون الاستغراق فى العمل: صلاة، وذكرًا، وصيامًا.. من الأسس الجوهرية فى حياة الإنسان: فإنهم اتجهوا فى صورة موفقة إلى العمل.

لقد أخذوا الكتاب بقوة، وكانوا أتقياء، فأفاض الله عليهم من إلهاماته، واتسم ما دونوه بطابع الروحانية، واتسم بالنضرة، وكان طابعه أنه يزكو على مر الزمن، ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر فيما ورد من آثار عن إبراهيم بن أدهم. والصورة الحية المثالية لثمار إلهاماتهم هى كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام، وكتاب الحكم لابن عطاء الله.

ولقد كان لكتبهم الأثر الكبير الواضح فى الهداية على مر العصور.

وقد يتساءل قوم: وماذا عن العمل والضرب فى الأرض واكتساب الرزق؟

وأبتدئ فى هذا الموضوع بذكر بعض ألقاب الصوفية:

القصار، الوراق، الخراز، الخواص، البزاز، الحلاج، الزجاجى، الحصرى، الصيرفى، المقرئ، الفراء.

وهذه ألقاب مأخوذة من مهن كانت لهم.

ولقد كان الصوفية كغيرهم؛ منهم الفقير ومنهم الغنى، ومنهم العازف عن

---

(١) الكهف: ٦٥.

الثراء العريض، ومنهم أصحاب الثروات الضخمة، التى يؤدون فيها حق الله، وينفقون منها فى سبيله، إنهم يؤتون حق المال يوم حصاده:

﴿وَفِي أموَالهُم حقٌّ للسَّائِلِ والمحرُوم﴾[1].

وهذا مثلًا: أبو الحسن الشاذلى، رضى الله عنه، وهو من صفوة الصفوة الصوفية، كانت له مزارع.

ونقول «مزارع» بالجمع لنتابع فى هذا التعبير حديث المؤرخين عنه، وكان له حصاد، ودراس.. وكانت له ثيران.. وكان يتاجر..

ومن دعائه المشهور:

«اللهم وسِّع علىَّ رزقى فى دنياى، ولا تحجبنى بها عن أُخرَاى».

ومن دعائه بشأن الدنيا:

«اللهم اجعلها فى أيدينا، ولا تجعلها فى قلوبنا».

والفرق بين الصوفية وغيرهم فى هذا هو أن الدنيا لا تستعبدهم، وإنما تستعبد غيرهم..

إنهم لا يلقون بقيادهم إلا لله سبحانه وتعالى، فلا يلقون بقيادهم إلى مال، أو جاه، أو منصب، أو رياسة، أو غير ذلك مما يذل له أهل الدنيا، وأهل الأهواء، الذين يتخذون دنياهم، وأهواءهم آلهة يعبدونها من دون الله.

إنهم أغنياء أو فقراء قد تحققوا بقوله تعالى:

﴿لكيلاَ تأْسَوْا على ما فاتكُمْ ولاَ تفرحُوا بما آتاكُم﴾[2].

وابن عطاء الله السكندرى يقص فى كتابه الجميل: «لطائف المنن» قصة ثرى صوفى تحقق بالآية القرآنية الكريمة، فلم يمنعه ثراؤه الضخم العريض أن يكون صوفيًا.

---

(١) الذاريات: ١٩.

(٢) الحديد: ٢٣.

يقول ابن عطاء الله:

«قال بعض المشايخ: كان رجل بالمغرب من الزاهدين فى الدنيا، ومن أهل الجد والاجتهاد، وكان عيشه مما يصيده من البحر، وكان الذى يصيده يتصدق ببعضه ويتقوت ببعضه، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب، فقال له هذا الشيخ:

إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخى فلان، فأقرئه منى السلام، وتطلب الدعاء منه لى، فإنه ولى من أولياء الله تعالى.

قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل، فَدُلِلْتُ على دار لا تصلح إلا للملوك، فتعجبت من ذلك، وطلبته فقيل لى: هو عند السلطان، فازداد تعجبى، فبعد ساعة وإذا هو أتى فى أفخر ملبس ومركب، وكأنما هو ملك فى موكبه.

قال: فازداد تعجبى أكثر من الأول.

قال: فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكننى مخالفة الشيخ.

فاستأذنت فأَذِنَ لى، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد والخدم والشارة الحسنة، فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك.

قال: جئت من عنده؟

قلت: نعم. قال: إذا رجعت إليه قل له:

إلى كم اشتغالك بالدنيا؟ وإلى كم إقبالك عليها؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها؟

فقلت: هذا والله أعجب من الأول، فلما رجعت إلى الشيخ، قال: اجتمعت بأخى فلان؟

قلت: نعم.

قال: فما الذى قال لك؟

قلت: لا شيء.

قال: لابد أن تقول لى.

فأعدت عليه ما قال، فبكى طويلاً وقال: صدق أخى فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده وعلى ظاهره، وأنا آخذها من يدى وعندى إليها بقايا التطلع». اهـ

وفى نهاية هذه الكلمة نورد صورة لشخصية صوفية متكاملة وإن كانت مشهورة، نوردها عن الطبقات الكبرى للشعرانى فى اختصار.

يقول الإمام الشعرانى - عن هذه الشخصية الصوفية - رضى الله عنه:

«ومنهم شيخنا وقُدْوَتُنَا إلى الله تعالى: الإمام الصالح الورع الزاهد: شمس الدين الديروطى، ثم الدمياطى، الواعظ..

كان فى الجامع الأزهر أيام السلطان قانصوه الغورى، وكان، رضى الله عنه، مهابًا عند الملوك والأمراء ومن دونهم زاهدًا ورعًا مجاهدًا صائمًا قائمًا، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر.. وقد حضرتُ مجلس وعظه فى الجامع الأزهر مرات، فرأيته مجلسًا تفيض فيه العيون، وكان إذا تكلم أنصتوا بأجمعهم.. وكان يحضرها أكابر الدولة، وأمراء الألوف، فكان كل واحد يقوم من مجلسه، متخشعًا، صغيرًا، ذليلاً.. رضى الله عنه..

وكان إذا مر فى شوارع مصر، يتزاحم الناس على رؤيته، وكان من لم يحصل ثوبه، رمى بردائه من بعيد على ثيابه، ثم يأخذ رداءه فيمسح به على وجهه، رضى الله عنه.

حط مرة على السلطان الغورى فى ترك الجهاد، فأرسل السلطان خلفه، فلما وصل إلى مجلسه، قال للسلطان: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

فلم يرد عليه.. فقال: إن لم ترد السلام فسقت وعزلت.. فقال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. ثم قال:

«علام تحط علينا بين الناس فى ترك الجهاد، وليس لنا مراكب نجاهد فيها؟ فقال: عندك المال الذى تعمر به.. فطال بينهما الكلام فقال الشيخ للسلطان:

«قد نسيت نعم الله عليك، وقابلتها بالعصيان.. أما تذكر حين كنت نصرانيًّا ثم أسروك وباعوك من يد إلى يد.. ثم مَنَّ الله عليك بالحرية والإسلام.. ورقَّاك إلى أن صرت سلطانًا على الخلق.. وعن قريب يأتيك المرض الذى لا ينجع فيه طب، ثم تموت وتكفن، ويحفرون لك قبرًا مظلمًا، ثم يُدس أنفك هذا فى التراب، ثم تُبعث عريانًا عطشانًا جوعانًا.. ثم تُوقف بين يدى الحكم العدل، الذى لا يظلم مثقال ذرة.. ثم ينادى المنادون: من كان له حق أو مظلمة على الغورى فليحضر، فيحضر خلائق لا يعلم عدتها إلا الله تعالى..» فتغير وجه السلطان من كلامه، فقال كاتب السر وجماعة السلطان: «الفاتحة: يا سيدى الشيخ خوفًا على السلطان، أن يختل عقله»، فلما ولَّى الشيخ وأفاق السلطان، قال:

ائتونى بالشيخ: فعرض عليه عشرة آلاف دينار، يستعين بها على بناء البرج الذى فى دمياط.. فردها عليه.. وقال: أنا رجل ذو مال لا أحتاج إلى مساعدة أحد.. ولكن إن كنت أنت محتاجًا أقرضتك وصبرت عليك.. فما رؤى أعز من الشيخ فى ذلك المجلس، ولا أذل من السلطان فيه.. هكذا كان العلماء العاملون، وقد صرف على عمارة البرج بدمياط نحو أربعين ألف دينار، ولم يساعده فيها أحد.. إنما كان يعقد الأشربة، ويتاجر فى الخيار شنبر ونحوه - رضى الله عنه - ولم يأخذ قط معلومَ وظيفة من وظائف الفقهاء. وكان يُنفِّر طلبته من أكل أوقاف الناس وقبول صدقاتهم، ويخبرهم

أنها تسوّد وجه قلوبهم - رضى الله عنه..

وله مصنفات: منها شرح منهاج النووى فى الفقه، وشرح الستين مسألة، وكتاب القاموس فى الفقه، وشرح قطعة من الإرشاد لابن المقرى، رضى الله عنه..

وكان متواضعًا مع من قرأ عليهم القرآن وهو صغير، ولم يصده ما وصل إليه من العلوم والمعارف والشهرة عن ذلك..

ولقد رأيته مرة راكبًا فنزل وقبل يد أعمى، تقوده ابنته، فقلت له: من هذا؟ فقال:

هذا أقرأنى وأنا صغير جزأين من القرآن - رضى الله عنه - فما أقدر قط أن أمر عليه وأنا راكب..

توفى، رضى الله عنه، فى ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وتسعمائة، وله من العمر نيف وخمسون سنة، رضى الله عنه، ودفن بزاويته بدمياط، ودفن عنده الأخ العزيز العارف بالله تعالى سيدى أبو العباس الحريثى، رضى الله عنه.

وبعد: فلعلنا قد أزلنا بهذه المقدمة - التى كان من الممكن أن تستفيض فتصير كتابًا - بعض الشبه التى تحوم حول الصوفية بسبب الجهل بهم، ومهدنا للتعريف بالإمام إبراهيم بن أدهم، رحمه الله ورضى عنه.

والله الهادى إلى الصواب.

﴿ومَن يعْتصِمْ باللّه فقد هُدِيَ إلى صِرَاط مُسْتقيم﴾[1].

د. عبد الحليم محمود

(١) آل عمران: ١٠١.

# الفصل الأول

## حياته

لقد هيأ الله سبحانه لإبراهيم بن أدهم خادمًا صوفيًا هو إبراهيم بن بشار.. وكان إبراهيم بن بشار هذا نابهًا ذكيًا طلعة، فكان يحب باستمرار أن يستفيد من ابن أدهم الكثير من الفوائد، وكان يسأله العديد من الأسئلة.. وإننا لندين لابن بشار بالكثير من المعلومات عن إبراهيم بن أدهم..

وتخيَّر إبراهيم بن بشار لحظة مناسبة ليسأل إبراهيم بن أدهم عن حياته، وهو يحدث عن ذلك فيقول:

قلت: يا أبا اسحاق، كيف كان أوائل أمرك حتى صرت إلى ما صرت إليه؟ وما كان إبراهيم بن أدهم يحب أن يتحدث عن نفسه.. إنه كان صوفيًا أصيلًا، والصوفى الأصيل يحب دائمًا أن يكون بعيدًا عن «أنا».. والصوفى الأصيل يبتعد بقدر استطاعته عن الحديث الشخصى عن نفسه.. إن ذلك يجره إلى البشرية المادية الحسية، إلى النفس، إلى الشخصية الفردية.. وذلك خروج من الجو الإلهى: جو الإطلاق.. أو بتعبير أدق، جو الفناء فى الله.. حيث تنمحى إرادته فى إرادة الله، وحيث يسترسل مع الله على ما يحب، وحيث العبودية الخالصة التى لا وجود لها - أو ينبغى أن تعتبر أن لا وجود لها - مع الرب جل وعلا.. أرأيت محبًا صادقًا له شخصية مع محبوبه؟..

أرأيت عابدًا مخلصًا له إرادة مع إرادة معبوده ؟..

أرأيت عبدًا صادق العبودية له ظهور بجوار سيده ؟..

لقد وصل الأمر بالإمام الشبلى - رضوان الله عليه - أنه سئل: لم سُميت الصوفية بهذا الاسم ؟.. فقال: لبقية بقيت فيهم من نفوسهم، ولولا ذلك لما تعلقت بهم الأسماء..

إن الإمام الشبلى حينما سُئل هذا السؤال، لم يأخذ فى مناقشة الاشتقاق، أو الحديث عن النسبة.. ولم يذهب فى السؤال المذاهب المعتادة من أن أصل الكلمة كذا أو كذا، أو أنها تنسب إلى كذا أو كذا.. وإنما تحدث بالصورة العميقة التى تليق بمكانته.. وكأنه يقول للسائل: إنها مهازل صبيانية، أن يقف الإنسان عند الاسم، مناقشًا فى نسبته أو أصله، وإنما الجدير بالعناية هو التوجيه الرشيد.. وأول خطوة فى هذا التوجيه الرشيد هى تنبيه السالكين إلى الله، إن التخلص من أهواء النفس وشهواتها، ونزعاتها ونزغاتها، من صميم التصوف والتخلص من النفس فناء فى الله.. والتخلص من النفس تخلص من التاريخ الشخصى، أو تخلص من «أنا»..

ولكل هذه المعانى، نفر إبراهيم بن أدهم من سؤال إبراهيم بن بشار، وقال له:

غير ذا أولى بك..

ولكن إبراهيم بن بشار، وهو لم يكن قد وصل بعد إلى آفاق إبراهيم بن أدهم الصوفية السامية، عاد فقال له:

يا أبا إسحاق، إن رأيت..

فقال له:

ويحك، اشتغل بالله..

فقال إبراهيم بن بشار:

كل ما قلته حق، رحمك الله.. ولكن أخبرني، لعل الله ينفعنا به يومًا..

وحينما ذكر إبراهيم بن بشار النفع، مشيرًا إلى:

﴿لقدْ كَان فى قَصَصِهم عبرة لأولى الألبابَ﴾[1].

تغير الموقف، وأصبح الأمر ليس أمر حديث شخصي.. وإنما هى قصة للهداية، وللعبرة، والعظة..

وحينما يقصها إبراهيم بن أدهم، فإنه لا يقصها على أنها تاريخه الشخصي.. وإنما على أنها عبرة وعظة..

وبدأ إبراهيم بن أدهم يقول:

وكان أبى من أهل بلخ، وكان من ملوك خراسان، وكان من المياسير.. وحبب إلينا الصيد فخرجت راكبًا فرسى، وكلبى معى.. فبينما أنا كذلك ثار أرنب أو ثعلب، فحركت فرسي.. فسمعت نداء من ورائى:

ليس لذا خلقت. ولا بذا أمرت..

فوقفت أنظر يمنة ويسرة. فلم أر أحدًا.. فقلت: لعن الله إبليس.. ثم حركت فرسى. فأسمع نداء أجهر من ذلك:

يا إبراهيم: ليس لذا خلقت.. ولا بذا أمرت..

فوقفت أنظر يمنة ويسرة. فلا أرى أحدًا.. فقلت:

لعن الله إبليس. ثم حركت فرسى، فأسمع نداء من قربوس سرجى: يا إبراهيم! ما لذا خلقت، ولا بذا أمرت..

فوقفت فقلت: أنبهت، أنبهت.. جاءنى نذير من رب العالمين، والله لا عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمنى ربى.. فرجعت إلى أهلى، فخليت

---

(۱) يوسف: آية ۱۱۱.

عن فرسى، ثم جئت إلى راع لأبى، فأخذتُ منه جبة وكساء، وألقيت ثيابى إليه، ثم أقبلت إلى العراق.. أرض ترفعنى، وأرض تضعنى، حتى وصلت إلى العراق، فعملت بها أيامًا فلم يصف لى منها شىء من الحلال، فسألت بعض المشايخ عن الحلال، فقالوا لى:

إذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام..

فصرت إلى بلاد الشام إلى مدينة يقال لها المنصورة - هى المصيصة - فعملت بها أيامًا، فلم يصف لى شىء من الحلال.. فسألت بعض المشايخ، فقالوا لى:

إن أردت الحلال الصافى فعليك بطرسوس، فإن فيها المباحات والعمل الكثير..

فتوجهت إلى طرسوس، فعملت بها أيامًا، أنظر البساتين، وأحصد الحصاد.. فبينما أنا قاعد على باب البحر.. إذ جاءنى رجل، فألح على أن أنظر بستانه، فكنت فى بساتين كثيرة - فإذا أنا بصاحب البستان قد أقبل ومعه أصحابه، فقعد فى مجلسه.. ثم صاح:

ياناظور..

فقلت: هو ذا أنا..

قال: اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه.. فذهبت فأتيته بأكبر رمان.. فأخذ رمانة فكسرها. فوجدها حامضة.. فقال:

ياناظور: أنت فى بستاننا منذ كذا وكذا، تأكل فاكهتنا، وتأكل رماننا. لا تعرف الحلو من الحامض؟.. قال إبراهيم:

قلت: والله ما أكلت من فاكهتكم شيئًا، وما أعرف الحلو من الحامض.

فأشار إلى أصحابه، فقال:

أما تسمعون كلام هذا؟ ثم قال:

أتراك لو أنك إبراهيم بن أدهم ما زاد على هذا..

فانصرف.. فلما كان من الغد ذكر صفتى فى المسجد، فعرفنى بعض الناس فجاء ومعه عُنق[1] من الناس.. فلما رأيته قد أقبل مع أصحابه اختفيت خلف الشجر. والناس داخلون.. فاختلطت معهم وهم داخلون، وأنا هارب..

فهذا كان أوائل أمرى، وخروجى من طرسوس إلى بلاد الرمال..

وروى يونس بن سليمان البلخى، عن إبراهيم بن أدهم، وزاد فى هذه القصة:

إذا هو على فرسه يركضه، إذ سمع صوتا من فوقه:

يا إبراهيم! ما هذا العبث:

﴿أفحَسِبْتُم أنَّما خلقنَاكُم عَبثًا، وأنَّكُم إلينَا لَا تُرْجعُون﴾[2].

اتق الله، وعليك بالزاد ليوم الفاقة.. فنزل عن دابته، ورفض الدنيا، وأخذ فى عمل الآخرة..

وبعض هذه القصة يروى بالصورة التالية:

عن داود بن الجراح قال:

«كان إبراهيم بن أدهم ينظر كرمًا فى كورة غزة، فجاءه صاحب الكرم ومعه أصحابه، فقال: ائتنا بعنب نأكله، فأتاه بعنب يقال له الخافونى.. فإذا هو حامض.. فقال له صاحب الكرم:

---

(١) عنق: جماعة.

(٢) المؤمنون: ١١٥

من هذا تأكل؟.. قال: ما آكل من هذا ولا من غيره..

قال: لمَ؟.. قال: لأنك لم تجز لى شيئًا من العنب.

قال: فأتنى برمان.. فأتاه برمان، فإذا هو حامض.. فقال:

من هذا تأكل؟.. قال: لا آكل من هذا ولا من غيره، ولكن رأيته أحمر حسنًا فظننت أنه حلو.. فقال:

لو كنت إبراهيم بن أدهم ما عدا..

قال: فلما علم أنهم عرفوه هرب منهم، وترك كراه - أى أجره..

وصورة حياة إبراهيم بن أدهم تزداد وضوحًا بالنبأ الذى يرويه عباس بن الفضل المرعشى قال: لقيت عبدالعزيز بن أبى دؤاد.. فتذاكرنا أمر إبراهيم بن أدهم، فقال عبد العزيز:

«رحم الله إبراهيم بن أدهم.. لقد رأيته بخراسان، إذا ركب حضر بين يديه نحو من عشرين شاكريًا[1]، ولكنه - رحمه الله - طلب بحبوحة الجنة».

ترك إبراهيم بن أدهم حياة الترف والنعيم والأهواء، وطلب بحبوحة الجنة.. ولكنه لم يستقر فى مكان.. وإنما كان دائم التنقل، وربما سافر من بلد إلى بلد آخر، ثم عاد من جديد إلى البلد الذى تركه.. وربما دخل بلدًا فلم يهنأ بالعيش فيه. ثم عاد إليه فنعم فيه بالحلال، كما حصل له بالنسبة إلى بلاد الشام..

ويصور لنا تنقلاته المستمرة، ما رواه شقيق البلخى قال:

«لقيت إبراهيم بن أدهم فى بلاد الشام، فقلت:

---

(١) الشاكرىُّ: الأجير.

يا إبراهيم: تركت خراسان؟..

فقال:

ما تهنيت بالعيش إلا فى بلاد الشام، أفر بدينى من شاهق إلى شاهق، ومن جبل إلى جبل.. فمن يرانى يقول: موسوس، ومن يرانى يقول هو حمال.. ثم قال لى: ياشقيق!.. لم ينبل عندنا من نبل إلا بتحرى الحلال، وألا يدخل جوفه شىء إلا من حله.

ثم قال:

يا شقيق!.. إذا أنعم الله على الفقراء لا يسألهم يوم القيامة لا عن زكاة ولا عن حج، ولالا عن جهاد، ولا عن صلة رحم.. إنما يسأل هؤلاء المساكين - يعنى الأغنياء».

وتَحرِّى إبراهيم بن أدهم للحلال، يُذَكِّرنا بقصة سعد، رضى الله عنه. مع رسول الله ﷺ فيما روى عن ابن عباس قال:

«تليت هذه الآية عند النبى ﷺ:

﴿يأيُّها النَّاس كلُوا مِمَّا فِي الأَرْض حَلالاً طَيِّبًا﴾[1].

فقام سعد بن أبى وقاص، فقال:

يارسول الله!.. ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال: يا سعد!.. أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة.. والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه، ما يُتقبل منه أربعين يومًا.. وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به».

ولقد كان إبراهيم بن أدهم من أشد الناس تحريًا للحلال. يقول أحد أصدقائه.

---

(١) البقرة: ١٦٨

«وكان إبراهيم بن أدهم كبير الشأن فى باب الورع، يحكى عنه أنه قال: «أطب مطعمك، ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل، ولا تصوم النهار».

ومن أجل الحلال، ومن أجل الورع سيطر إبراهيم بن أدهم على نفسه، فأصبحت لا تشتهى إلا ما يكون فى دائرة الحلال الميسور، لقد قيل له: إن اللحم قد غلا، فقال: أرخصوه.. وأنشد فى ذلك:

وإذا غَـلا شـىءٌ عَلَىَّ تركتُـه فيكونُ أَرخَصَ ما يكونُ إذا غَلا

لقد غالب إبراهيم بن أدهم أهواءه حتى تغلب عليها، مستعينًا بالله، مستكفيًا إياه.. يقول إبراهيم بن بشار: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول:

«وأما أهوائى فقد - والله - استعنت بالله عليها فأعاننى، واستكفيته سوء مغالبتها فكفانى، فوالله ما آسى على ما أقبل من الدنيا ولا ما أدبر منها».

ولكن سيطرته على نفسه لم تكن من السهولة بمكان، وهذا طبيعى.. فإنه لا يتغلب على نفسه فيسلس له قيادها، إلا من هدى الله وعصم..

وإبراهيم بن بشار يقول:

سمعت إبراهيم بن أدهم يقول:

أشد الجهاد جهاد الهوى.. من منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلائها، وكان محفوظًا ومعافى من أذاها.

أخذ إبراهيم بن أدهم يضرب فى الأرض، حارسًا للبساتين، أو حاصدًا للزرع.. وهو فى كل ذلك لا يفتر عن ذكر الله.. يقول على بن بكار:

كان الحصاد أحب إلى إبراهيم من اللقاط، وكان سليمان الخواص لا يرى باللقاط بأسًا يلقط، وكانت أسنانها قريبة، وكان إبراهيم أفقه،

وكان من العرب، من بنى عجل، كريم الحسب، وكان إذا عمل ارتجز، وقال:

اتخذ الله صاحبًا ودع الناس جانبًا

وكان يلبس فى الشتاء فروًا ليس تحته قميص، ولم يكن يلبس خفين ولا عمامة.. وفى الصيف شقتين بأربعة دراهم، يتزر بواحدة ويرتدى، بأخرى، يصوم فى السفر والحضر، ولا ينام الليل.. وكان يتفكر، فإذا فرغ من الحصاد أرسل بعض أصحابه فحاسب صاحب الزرع، ويجىء بالدراهم لا يمسها بيده، فيقول لأصحابه: اذهبوا كلوا بها شهواتكم، فإن لم يكن حصاد أجر نفسه فى حفظ البساتين والمزارع، وكان يجلس فيطحن بيد واحدة مُدَّىْ قمح.. قال إبراهيم:

يعنى قفيزين..

ولا بد لنا من وقفة مع تجربة إبراهيم بن أدهم النفسية:

لقد بدأ إبراهيم بن أدهم حياته فى ترف من العيش، وفى نعيم من الدنيا: فقد كان والده من المياسير، بل كان من بيت الملك.

ونشأ إبراهيم لذلك محاطًا بكل أنواع الرعاية، وانغمس إبراهيم فى كل ما تتيحه بيئته المترفة من ملاذ.. لقد عَبَّ منها ونهل..

وفى لحظات، لا تعد بالشهور ولا بالأيام بل ولا بالساعات، فى لحظات - تعد بالدقائق - انقلب إبراهيم - فجأة - من شاب مفتون بالدنيا، قد تهيأ له الشباب والفراغ والثراء، فركض فى ميادين المتعة، إلى شاب يتجه بكل كيانه إلى الله سبحانه، ويصبح ما بين طرفة عين وانتباهتها من أولياء الله.. يقول صاحب «طبقات الصوفية» عن ذلك:

وكان من أبناء الملوك المياسير، خرج متصيدًا، فهتف به هاتف أيقظه

من غفلته، فترك طريقته فى التزين بالدنيا، ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع. كيف حدث هذا الانقلاب؟.. لقد حدث عنه إبراهيم بن بشار خادمه كما سبق أن ذكرنا.

ومسألة تحول إبراهيم بن أدهم من حال إلى حال مسألة لها نظائرها فى التاريخ.

فها هو ذا - مثلاً - سيدنا عمر - رضى الله عنه - ذاهب لقتل رسول الله ﷺ ليقضى على الإسلام ويزيله من الوجود - فيما توهم - فإذا بهداية الله تغمره فى لحظات. فيتحول من جاهلية إلى إسلام..

وقد يظن بعض الناس أنه تحول مفاجئ فى الظاهر والباطن، ولكن إذا تأملنا الظروف والملابسات، رأينا أنه تحول مفاجئ واقعيًّا، ولكنه تحول سبقته عوامل لا شعورية، وبواعث عدة، تتفق كلها فى توجيه الإنسان وجهة الخير التى أحبها الله له.

إن المادة والملاذ والشهوات لا تنتهى بالإنسان إلى الرضا والطمأنينة والهدوء النفسى والسكينة.. كلا.

وكثير من هؤلاء الذين ينغمسون فيها: كثيرًا ما يكونون من أتعس خلق الله، أرأيت إلى هاتيك الممثلات الجميلات الثريات، اللواتى ينغمسن فى الشهوات والملاذ من مفرق رءوسهن إلى أخمص أقدامهن؟

ألم تسمع أن هذه أو تلك قد انتحرت يائسة من أن تجد سكينة النفس؟ إنهن الشقيات، إنهن اللواتى لم يرد الله لهن حسن الخاتمة..

ولكن من بين المنغمسات فى الملاذ، من أراد الله بهن حسن الخاتمة فانتفضن انتفاضة وضعتهن فى لحظات فى مرتبة القديسات.

ولعل القارئ قد سمع عن: «مريم المجدلية» التى انتفضت هذه

الانتفاضة، وذهبت إلى المسيح عليه السلام، فغسلت رجليه بالدموع، ومسحتهما بشعر رأسها، ولم تكف عن تقبيلهما ودهنهما بالطيب.. وغفر الله خطاياها على لسان السيد المسيح عليه السلام، الذى وازن بينها وبين «سمعان» فرجحت كفتها.

وهل قرأت قصة «تاييس» التى كتبها «أناتول فرانس» فى أسلوب ساحر، وفى تعبير عن الجوانب النفسية أدق ما يكون التعبير.

إنها اتجهت إلى الله بكل كيانها، فتقبلها فى رحابه، وغفر لها ماضيها الآثم، وماتت قديسة..

إن الانتفاضات الدينية الروحية التى تنتشل الإنسان فجأة من حياة اللهو والإثم كثيرة فى مجرى التاريخ.

وما انتفاضة إبراهيم بن أدهم إلا واحدة من عشرات أو مئات.. إن الرضا الحقيقى لا يكون ثمرة الملاذ.. والسعادة ليست نتيجة اللهو والعبث.. وإن كل من منحه الله عنصر الخيرية فى طبيعته لابد له من انتفاضة تنتشله من جو البعد عن الله إلى جو القرب منه.

هذه الانتفاضة لها مقدماتها وبواعثها، وأسبابها وعواملها الكثيرة التى تكون انتباهة عابرة، أو عدم ارتياح إلى ماهو فيه، أو عدم اقتناع بأن حياته تمثل الحياة المثلى، أوعدم رضا عن آلية حياته.

ولقد كان إبراهيم بن أدهم – قبل توبته – يتجه إلى الله من حين إلى حين.. يتجه إليه وهو فى غمرة من ملذاته.. يتجه إليه فى رجاء ويقول:

«اللهم انقلنى من ذل معصيتك إلى عز طاعتك».

هذه هى انتفاضة إبراهيم بن أدهم، وهى انتفاضة كل من أحب الله لهم الخير والهداية.. أما الذين نضب معين النور من قلوبهم، بسبب آثامهم

ومعاصيهم.. وأما الذين أطاحت بهم الخطيئة لكثرة ما اجترحوا من السيئات، فإنهم ينتحرون فى غمرة من مقت الله، أو يستمرون فى شرهم إلى أن تنتهى بهم الحياة.

﴿فَمَنْ يُرِد الله أَنْ يهديه يَشْـرَح صدْرَهُ للإسـلام﴾[1].

﴿ومَن يَعْتصِمْ بالله فقدْ هُدِىَ إلى صراط مُستقيم﴾[2].

سياحاته:

لقد كان شيخنا – رضوان الله عليه – كثير السياحة.. لقد كان ينتقل من مكان إلى مكان.. كان ينتقل من أجل طلب الرزق الحلال، وكان ينتقل من أجل طلب العلم، وكان ينتقل متعبدًا، وكان ينتقل ابتعادًا عن الشهرة – أى ينتقل من مكان اشتهر فيه إلى مكان آخر لا يعرف فيه..

والسياحة كانت دائمًا من منهج الصوفية لكل هذه الأغراض التى ذكرناها.. وكلمة السياحة إذا كانت قد مسخت الآن، وأصبحت لاتكاد تدل إلا على العبث والاستهتار، فإنها فى الجو الإسلامى لها معناها الشريف الصادق..

إن الله، سبحانه وتعالى، يصف بها المؤمنين الصادقين فيما وصفهم به من كريم الصفات، فيقول:

﴿التَّائبُون العابدُون الحامِدُون السَّائِحُون الراكِعون الساجدُون

(١) الأنعام: ١٢٥

(٢) آل عمران: ١٠١

الآمرون بالمعروفِ والنَّاهون عَنِ المنكر، والحَافِظونَ لحدود الله، وبَشِّرِ المؤمنين﴾[1].

ويصف بها المؤمنات الصادقات اللائى يمثلن المثل الأعلى لزوجات الرسول ﷺ فيقول:

﴿عَسَى ربُّه إنْ طلقَكُنَّ أن يُبدِله أَزْواجًا خيرًا منكُنَّ، مُسْلِماتٍ، مؤمناتٍ، قانتاتٍ، تائباتٍ، عابداتٍ، سائحاتٍ، ثيباتٍ، وأبكارًا﴾[2].

وكانت كلمة السياحة تعنى أحد أمرين:

كانت تعنى السياحة فى طلب العلم: وذلك أن الأمة الإسلامية – وهى أمة واحدة – قد توزعت الاختصاصات فى فنون العلم المختلفة بين أرجائها.. فأكبر عالم متخصص فى الحديث مثلا كان بالمدينة، وأكبر عالم فى الفقه كان فى مكة، وأكبر عالم فى التوحيد كان فى مصر أو فى بغداد.. وهكذا..

فكان الصوفية يسيحون طلبًا للعلم فى مختلف الأقطار.. ومن الروايات المشهورة، أن يسافر عالم من دمشق إلى القاهرة فى طلب حديث واحد.. وهذه الأسفار فى طلب العلم يطلقون عليها هجرة فى سبيل الله.

والمهاجرون طلبًا للعلم. من الصوفية ومن غيرهم لا يكاد يحصيهم العد.. وكم ألف هؤلاء المهاجرون من الكتب بجوار الكعبة، فكانت مؤلفاتهم فتحًا وكانت فتوحات..

وكم ألفوا من الكتب بالمدينة المنورة، فكانت مؤلفاتهم نورًا، وكانت أنوارًا.

---

(١) التوبة: ١١٢ (٢) التحريم: ٥

وكانت كلمة السياحة - أيضا - تعنى السفر تعبدًا، وإن السفر لمن أهم الوسائل التى تدعو إلى التأمل والعظة والتفكر، وإلى الخلوة مع الله فى بيئة لا تعرف الإنسان، فلا تشغله عن عبادته..

وكان الصوفية يكثرون من هذا النوع من السياحة، وكانوا يقومون بها على شواطئ الأنهار، أو فى الصحراء على مشارف العمران، وكانوا يقصون الأقاصيص المختلفة التى رأوها أو حدثت لهم أثناء أسفارهم، والتى يكون فيها العظة والعبرة للآخرين..

بيد أن أسفار إبراهيم بن أدهم لم تكن من أجل هذه الأهداف التى ذكرناها فحسب، وإنما كانت أيضًا من أجل الجهاد فى سبيل الله.. وسنتحدث عن هذا فيما بعد إن شاء الله.

* * *

لقد ترك إبراهيم بن أدهم حياة النعيم وحياة الترف من أجل العبادة، ولم تشغله حراسة البساتين أو حصاد الزرع عن الاستغراق فى العبادة.. يقول مخلد بن الحسين:

«ما انتبهت من الليل إلا أصبت إبراهيم بن أدهم يذكر الله، فأغتم، ثم أتعزى بهذه الآية: ﴿ذَلك فَضْل اللّهِ يؤتِيه منْ يشاء﴾»[1]..

بيد أن الطابع الذى كان يسود عبادته إنما هو التفكر.. يقول يوسف ابن سعيد بن مسلم: قلت لعلى بن بكار: «كان إبراهيم بن أدهم كثير الصلاة؟

قال: لا، ولكنه صاحب تفكر يجلس ليله يتفكر».

وإبراهيم فى هذا يساير الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، قال تعالى:

---

(١) الحديد: ٢١.

﴿إنَّ فى خلْق السمَوات والأرضِ واختلافِ اللَّيل والنهارِ لآيات لأولِى الألْباب.. الذين يذْكرُونَ الله قِيامًا وقعودًا وعلَى جُنوبهم ويتفَكرونَ فى خَلْق السَّمٰوات والأرضِ ربَّنا ما خَلقْتَ هذَا باطِلاً سُبحانك﴾[1]..

ويقول:

﴿قُلِ انْظُروا مَاذا فى السَّمٰوات والأرضِ﴾[2].

ويقول:

﴿أفلَمْ يَنظرُوا إلى السَّماء فَوْقَهُم كيفَ بنيناهَا وزَينَّاها وما لها من فُروجٍ، والأرضَ مَدَدْنَاها وألقينَا فيها رواسِىَ وأنبتنا فِيهَا من كل زوْجٍ بهيج، تَبْصِرَةً وذِكْرَى لكُلِّ عبْدٍ منيب.. ونَزَّلْنَا منَ السماء ماءً مباركًا فأنبتنَا به جنَّاتٍ وحَبَّ الحصيدِ.. والنَّخْل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد.. رزقًا للعبادِ وأحْيَيْنَا به بلدةً مَيْتًا كذلك الخروج﴾[3].

ويقول تعالى:

﴿أفلا ينظرون إلى الإبِل كيفَ خُلقت، وَإلى السماءِ كيْف رُفِعت، وإلى الجبالِ كيف نُصِبَت، وإلى الأرْضِ كيفَ سُطِحت﴾[4]؟..

ولما نزل قوله تعالى: ﴿إن فى خلق السموَاتِ والأرْضِ واختلافِ اللَّيل والنهارِ لآياتٍ لأولى الألباب﴾ الآيات... بكى رسول الله ﷺ،

---

(١) آل عمران: ١٩٠ - ١٩١.

(٢) يونس: ١٠١.

(٣) ق: ٦ - ١١.

(٤) الغاشية: ١٧ - ٢٠.

فرآه بلال فقال: يا رسول الله تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟..

فقال:

يا بلال، أفلا أكون عبدًا شكورًا..؟.. وما لى لا أبكى وقد نزل على الليلة: ﴿إنَّ فى خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب﴾ - إلى قوله - ﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾.. ثم قال: ويل لمن قرأ هذه الآيات ولم يتفكر فيها..

ومن الآثار فى ذلك ما روى عن الحسن البصرى قال:

تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وعن أبى سليمان الدارانى قال:

«إنى لأخرج من منزلى فما يقع بصرى على شىء إلا رأيت لله علىَّ فيه نعمة، ولى فيه عبرة»..

وقال سفيان بن عيينة:

«الفكرة نور يدخل قلبك».

وقال بشر بن الحارث:

«لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه»..

وإذا تحدث الكاتبون عن عبادة إبراهيم بن أدهم، فإنه من الأهمية بمكان أن يتحدث الإنسان عن نوع من العبادة عنده، هو من أنفس أنواع العبادات، وذلك هو السخاء، أو إذا شئت: الصدقة.. يقول مضاء بن عيسى:

«مافاق إبراهيم بن أدهم أصحابه بصوم ولا صلاة، ولكن بالصدق والسخاء».

ويحدث أحمد بن أبى الحوارى فيقول: قلت لمروان - وكان مضاء حدثنى قال: «ما فاق إبراهيم بن أدهم إلا بالصدق والسخاء.. قال مروان: كان إبراهيم سخيًا جدًا»..

ويقول الأوزاعى:

«ليس فى هؤلاء الفقراء أفضل من إبراهيم بن أدهم، فإنه أسخى القوم»..

وبرغم أن إبراهيم بن أدهم كان يأكل من عمل يده، فإن أجره كان فيه البركة، وكان العسل والسمن دائمًا على مائدته، وكانت مائدته مبذولة لكل وارد من أصحابه. يقول بشر بن المنذر - قاضى المصيصة:

«كنت أرى إبراهيم بن أدهم كأنه أعرابى، لا يشبع من الخبز والماء، يابسًا، إنما هو جلد على عظم، لا تراه مجالسًا أحدًا، ولا تحدثه حتى يأتى منزله، فإذا أتى منزله وجلس إليه إخوانه ضاحكهم وباسطهم.. وقال لى بعض أصحابه: ما كان العسل والسمن على مائدته إلا شبيهًا بالحمص المطحون - يعنى الباقلا - يريد أنه كان كثيرًا مبذولاً كأنه الحمص.

ولم يكن كرمه مبذولاً فى بيته فحسب، وإنما كان مبذولاً بحسب الظروف.. يروى أحمد بن الفضل العكى قال: سمعت أبى يقول:

«مر إبراهيم بن أدهم بقيسارية، وقد تعجل دينارًا من الكرم، فسمع صوت امرأة تصيح فقال: ما هذه؟.. قالوا تلد.. قال: وأى شىء يعمل بالمرأة.. قالوا: يشترى لها طحين وزيت ولحم وعسل، فصرف ديناره، واشترى زنبيلاً، وملأه طحينًا، واشترى زيتًا وسمنًا وعسلاً ولحمًا وحمله على رقبته إلى الباب، وقال: خذوا.. قال: فنظر فإذا هم أفقر بيت فى أهل قيسارية وأعبدهم».

ومرة أخرى - كمثل لما كان عليه من الإنفاق - يتحدث عنها

شقيق بن إبراهيم ويذكرها كتاب الحلية. يقول شقيق:

«بينما نحن ذات يوم عند إبراهيم، إذ مر به رجل من الصناع، فقال إبراهيم: أليس هذا فلانا؟.

قيل: نعم.

فقال لرجل: أدْرِكْهُ فقل له، قال لك إبراهيم: مالك لم تسلِّم؟..

قال: لا، والله.. إن امرأتي وضعت، وليس عندي شيء، فخرجت شبه المجنون.. فرجعت إلى إبراهيم وقلت له، فقال:

إنا لله.. كيف غفلنا عن صاحبنا حتى نزل به الأمر؟..

قال:

يا فلان، ائت صاحب البستان فاستسلف منه دينارين، وادخل السوق فاشتر له ما يصلحه بدينار، وادفع الدينار الآخر إليه.. فدخلت السوق وأوقرت بدينار من كل شيء، وتوجهت إليه فدققت الباب.. فقالت امرأته:

من هذا؟.. قلت: أنا، أردت فلانًا.. قالت ليس هنا.

قلت: فمري بفتح الباب وتنحي، قال:

ففتحت الباب، فأدخلت ما على البعير، وألقيته في صحن الدار وناولتها الدينار..

فقالت: على يدي من هذا؟..

قلت: قولي: على يد أخيك إبراهيم بن أدهم.. فقالت:

اللهم لا تنس هذا اليوم لإبراهيم».

ويأسف إبراهيم بن أدهم على ذهاب السخاء من الأنفس، يقول إبراهيم بن بشار:

«سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: ذهب السخاء والكرم والجود

والمواساة، من لم يواس الناس بماله وطعامه وشرابه، فليواسهم ببسط الوجه والخلق الحسن.. إياكم أن تكون أموالكم سببًا فى أن تتكبروا على فقرائكم، أو سببًا فى أن لا تميلوا إلى ضعفائكم، وألا تنبسطوا إلى مساكينكم» قال:

وسمعت إبراهيم يقول: قال لقمان لابنه:

«ثلاثة لا يُعْرَفُونَ إلا فى ثلاثة مواطن: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا فى الحرب إذا لقى الأقران، ولا أخاك إلا عند حاجتك إليه»..

وإذا سألت الآن عن الطعام الذى كان يتناوله هذا الذى كان السمن والعسل على مائدته كالحمص، فهاك ما يقوله أحمد بن أبى الحوارى فى ذلك:

«قلت لسليمان بن أبى سليمان: بلغنى أنهم تذاكروا طيب الطعام عند إبراهيم بن أدهم، فقال إبراهيم: ما أحسب أن يكون شىء أطيب من خبز سُحِقَ بزيت، فقال سليمان: كان معه أداته - يعنى الجوع - .. ومعنى قول سليمان: هو أن إبراهيم بن أدهم كان يستمرئ كل طعام، لأنه ما كان يأكل إلا جائعًا، وما دام جائعًا فكل طعام فى فمه لذيذ..».

## عبادته عن طريق الدعاء

والدعاء مخ العبادة، وذلك لأنه مظهر الافتقار والعبودية إلى الله سبحانه وتعالى.

يقول الله تعالى:

﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغنى الحميد﴾[1].

(١) فاطر: ١٥.

وفقرنا إلى الله سبحانه ومعرفتنا أنه رحيم رءوف ودود، من فوائده أن يوجهنا إليه سبحانه بالدعاء ليصرف الأذى، وليرفع المقت، وليشفى من المرض، وليكشف العذاب..

ولقد وجهنا الله صراحة وفى غير موطن من القرآن الكريم إلى أن نلجأ إليه بالدعاء، إنه تعالى يأمرنا بذلك أمرًا.. يقول تعالى:

**﴿وقَال ربكم ادْعُونى أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين﴾**[١].

ويبين الله سبحانه فى صورة من الرحمة الكريمة أنه قريب من الداعى، ومن كل عبد له:

**﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيبُ دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لى، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾**[٢]..

ويبين سبحانه أنه يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء:

**﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض..؟.. أإله مع الله..؟ قليلاً ما تذكرون﴾**[٣]..

والأحاديث القدسية فيما يتعلق بتوجيه الله إلى الدعاء، منها هذا الحديث الشريف الجميل البالغ الجمال لفظًا ومعنى.. والذى رواه أبو ذر جندب ابن جنادة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

---

(١) غافر: ٦٠.
(٢) البقرة: ١٨٦.
(٣) النمل: ٦٢.

«يا عبادى: إنى حَرَّمْتُ الظُّلم على نفسى، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا.. يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم.. يا عبادى: كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم.. يا عبادى: كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم.. يا عبادى: إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم.. يا عبادى: إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى.. يا عبادى: لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا..

يا عبادى: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئًا..

يا عبادى: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أُدخل البحر..

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»..

وحث رسول الله ﷺ على الدعاء كثيرًا فقال:

«إن الله عز وجل يقول:
أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا دعانى»[1].

وقال:
«الدعاء هو العبادة: ثم قرأ:

---

(١) البخارى ومسلم واللفظ له والترمذى والنسائى وابن ماجه.

﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين﴾[1].

وقال:

«الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السماوات والأرض»[2].

وكان رسول الله ﷺ يلجأ إلى الله فى كل آونة بالدعاء.. ومجموعة أدعية رسول الله ﷺ تمثل الأسلوب الجميل والعبودية السامية، والتوحيد الخالص.

ولقد أبان ﷺ أن قضاء الله الماضى يلطفه الدعاء، ويرده الدعاء، وإن الدعاء والقضاء يلتقيان فيتصارعان ويتدافعان إلى يوم القيامة.. يقول ﷺ:

«لا يُغنى حَذَرٌ مِنْ قَدَر.. والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل.. وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء، فيعتلجان إلى يوم القيامة»[3].

وليس فى ذلك معارضة للقضاء والتقدير.. لأن الدعاء من القضاء ومن التقدير.. وقد جعله الله سببًا لتخفيف البلاء، وزوال النقم.

واتباعًا لهدى القرآن، وتأسيًا برسول الله ﷺ، وإظهارًا للعبودية الخالصة لله سبحانه، والتجاء إلى الله لكشف السوء صغيرًا كان أو كبيرًا.. التجأ الصالحون دائمًا إلى الله بالدعاء..

وعلى هذا النسق سار شيخ الصوفية: إبراهيم بن أدهم.

لقد كان لإبراهيم بن أدهم ورد يومى، يرويه عنه إبراهيم بن بشار:

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) الحاكم وأبو يعلى. ويعتلجان: يصطرعان.

(٣) رواه البزار والطبرانى والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

كان إبراهيم بن أدهم – حسبما يروى ابن بشار – يقول هذا الكلام فى كل جمعة إذا أصبح عشر مرات، وإذا أمسى يقول مثل ذلك:

«مرحبًا بيوم المزيد، والصبح الجديد، والكاتب الشهيد.. يومنا هذا يوم عيد، اكتب لنا فيه ما نقول:

«باسم الله الحميد المجيد، الرفيع الودود، الفعّال فى خلقه ما يريد.. أصبحت بالله مؤمنًا، وبلقاء الله مصدقًا، وبحجته معترفًا، ومن ذنبى مستغفرًا، ولربوبية الله خاضعًا، ولسوى الله جاحدًا، وإلى الله تعالى فقيرًا، وعلى الله متوكلًا، وإلى الله منيبًا.. أشهد الله، وأشهد ملائكته، وأنبياءه، ورسله، وحملة عرشه، ومن خلق، ومن هو خالق، بأن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.. وأن الجنة حق، والنار حق، والحوض حق، والشفاعة حق، ومنكرًا ونكيرًا حق، ولقاءك حق، ووعدك حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وإن الله يبعث من فى القبور.. على ذلك أحيا، وعليه أموت، وعليه أبعث إن شاء الله..

اللهم أنت ربى، لا ربَّ لى إلَّا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت.. أعوذ بك اللهم من شر كل ذى شر، اللهم إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوبى، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدنى لأحسن الأخلاق، فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت.. لبيك وسعديك، والخير كله بيديك وأنا لك، أستغفرك وأتوب إليك.. آمنت اللهم بما أرسلت من رسول، وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب.. صلى الله على محمد وعلى آله وسلم كثيرًا خاتم كلامى ومفتاحه.. وعلى أنبيائه ورسله أجمعين.. آمين، يارب العالمين..

اللهم أوردنا حوضه، واسقنا بكأسه، مشربًا مريًا، سائغًا هنيًا، لا نظمأ

بعده أبدًا، واحشرنا فى زمرته، غير خزايا، ولا ناكسين، ولا مرتابين ولا مقبوحين، ولا مغضوبًا علينا، ولا ضالين..

اللهم اعصمنى من فتن الدنيا. ووفقنى لما تحب من العمل وترضى، وأصلح لى شأنى كله، وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ولا تضلنى وإن كنتُ ظالمًا.. سبحانك سبحانك.. يا على يا عظيم، يا بارئ يارحيم. يا عزيز يا جبار، سبحان من سبحت له السماوات بأكنافها، وسبحان من سبحت له الجبال بأصواتها، وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها، وسبحان من سبحت له النجوم فى السماء بأبراقها، وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها ونضارتها، وسبحان من سبحت له السماوات السبع والأرضون السبع، ومن فيهن، ومن عليهن، سبحانك سبحانك ياحى يا حليم، سبحانك لا إله إلا أنت وحدك».

على أن إبراهيم بن أدهم، ما كان يكتفى بهذا الدعاء.. وإنما كانت له كلمات جميلة هى على لسانه فى كل لحظة.. منها مثلًا، ما يخبر به عبد الله الملطى وغيره:

«كان عامة دعاء إبراهيم:

اللهم انقلنى من ذل معصيتك إلى عز طاعتك».

وكان لإبراهيم بن أدهم دعاء فى الشدائد معروف:

لقد كان يتجه إلى الله بكيانه كله، قائلا:

«ياحى حين لا حى، ويا حى قبل كل شىء، ويا حى بعد كل شىء.. يا حى، ياقيوم، يا محسن، يا مجمل.. قد أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك».

وكان له دعاء للحفظ مجرب.. لقد جربه مثلا إبراهيم بن بشار وقال:

«إنى لأقوله على ثيابى ونفقتى، فما فقدت منها شيئًا»..

ولقد كان إبراهيم بن أدهم يعلمه لأصحابه، كان يقول لهم إذا اجتمعوا:

«ما على أحدكم إذا أصبح وإذا أمسى أن يقول:

«اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام، واحفظنا بركنك الذى لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا، ولا نهلك وأنت الرجاء»

ويقول خلف - كما يروى كتاب الحلية -: «فأنا أسافر منذ نيف وخمسين سنة، فأقولها: لم يأتنى لص قط، ولم أر إلا خيرًا»..

ولقد سئل إبراهيم بن أدهم عن السبب فى أن بعض الناس يدعو فلا يستجاب له.. ويروى شقيق البلخى فى ذلك أن إبراهيم بن أدهم مر يومًا فى أسواق البصرة. فاجتمع الناس إليه، فقالوا: «يا أبا إسحاق: إن الله تعالى يقول فى كتابه:

﴿ادعونى أستجب لكم﴾.

ونحن ندعوه منذ دهر، فلا يستجيب لنا؟

فقال إبراهيم:

يا أهل البصرة. ماتت قلوبكم فى عشرة أشياء:

أولها : عرفتم الله، ولم تؤدوا حقه..

الثانى : قرأتم كتاب الله. ولم تعملوا به..

الثالث : ادعيتم حب رسول الله ﷺ، وتركتم سنته.

الرابع : ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه..

الخامس: قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها.

السادس: قلتم نخاف النار، ورهنتم أنفسكم بها..

السابع : قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له..

الثامن : اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم..
التاسع : أكلتم نعمة ربكم، ولم تشكروها..
العاشر : دفنتم موتاكم، ولم تعتبروا بهم..

وقال إبراهيم بن أدهم، يومًا، لرجل:

«تريد أن تدعو؟.. كُل الحلال وادع بما شئت»..

وإبراهيم بن أدهم فى هذا يتابع الحديث الشريف - فيما روى عن ابن عباس قال:

«تليت هذه الآية عند النبى ﷺ:

﴿يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا﴾.

فقام سعد بن أبى وقاص، فقال:

يارسول الله؟.. ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة.. فقال:

يا سعد أَطِبْ مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نَفْسُ محمد بيده!.. إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه، ما يتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه مِنَ السُّحْتِ فالنار أَوْلَى به»..

وبعد:

فقد كان لإبراهيم بن أدهم مناجاة:

«اللهم إنى لم آت الذنوب جراءة عليك ولا استخفافًا بحقك، ولكن جرى بذلك قلمك، ونفذ به حكمك، والمعذرة إليك».

لقد كان إبراهيم بن أدهم متعبدًا، يغلب عليه طابع التفكير فى خلق السماوات والأرض، وكان يأكل من عمل يده، وكان سخيًّا.. وكل هذا تحدثنا عنه - بيد أننا إذا اقتصرنا على ذلك، فإن الصورة التى نقدمها عن

إبراهيم بن أدهم تكون ناقصة.. ومن أجل إتمام هذه الصورة، فإننا نعود إلى أسفاره التي ذرع فيها أرض الله ذهابًا وجيئة، متفكرًا، متأملًا، متعظًا واعظًا..

إن الكثير من هذه الأسفار كان متجردًا للجهاد في سبيل الله، لقد جاهد إبراهيم بن أدهم في البر، وجاهد في البحر.. يروى صاحب الحلية عن أحمد بن بكار قال:

«غزا معنا إبراهيم بن أدهم غزاتين، كل واحدة أشد من الأخرى.. غزاة عباس الأنطاكي، وغزاة محكاف.. فلم يأخذ سهمًا ولا نفلًا[1] وكان لا يأكل من متاع الروم، نجيء بالطرائف والعسل والدجاج، فلا يأكل منه ويقول: هو حلال ولكني أزهد فيه.. كان يأكل مما حمل معه، وكان يصوم.. قال: وغزا على برذون[2] ثمنه دينار.. وكان له حمار فعارض به ذلك البرذون.. وكان لو أعطيته فرسًا من ذهب أو من فضة ما كان قبله، ولا يقبل شربة من ماء.. وغزا في البحر غزاتين لم يأخذ سهمه، ولا يقترض.. قال علي: هذا الغازي.. قال علي: ومات إبراهيم في صائفة السفر بالبطن»..

وعن أشعث بن شعبة قال:

«غزونا غزوة ومعنا إبراهيم بن أدهم، فأصابتنا مخمصة في أنفسنا، وفي دوابنا، فسمع أهل المصيصة بذلك، فبعثوا بالبغال عليها الزاد إلى الدرب، فسمعت إبراهيم يقول: أي متكلف أخبر الناس بهذا؟.. قال أشعث:

كأنه يشتهي أن نكون على حالنا حتى ندخل. فلما دخل مضى كما هو فلم ينزل المصيصة، فقال لي أبو إسحاق الفزاري: اطلب إبراهيم.. فطلبته. فإذا هو قد مر.. فقال لي: الحقه، وأعطاني نفقة.. فلحقته بأنطاكية. فقال لي

---

(١) أي: غنيمة. (٢) أي: دابة.

حين رآنى: قد جئت؟.. قلت: نعم، أبو إسحاق بعثنى، فأعطيته النفقة، فقبلها، فلما أردت الرجوع أعطانى إزارًا، وقال لى: اذهب بهذا إلى أبى إسحاق.. قلت:

ما منعك أن تنزل بالمصيصة؟.. فقال: على من أنزل؟.. فذكر أهل المصيصة حتى ذكر شريكا فقال: لو قسمت خمسة دراهم فى السبيل، جاء شريك ينافس فيها».

وتدل هذه القصص على الطابع النفسى والأخلاقى لإبراهيم فى غزوه.. إنه ما كان يغزو من أجل المغنم، إنما كان يجرد همته كلية لله تعالى، لا يبغى من وراء ذلك حطام الدنيا، ولا ينبغى جزءا ولاشكورًا من أحد.. إنه ما كان يبغى الجزاء إلا من الله سبحانه.

قرأ إبراهيم القرآن الكريم، وتمعن فيه.. ودرس الحديث الشريف فى استفاضة ورأى ما للجهاد من فضل، فأحب أن يشرف على الجنة من تحت ظلال السيوف كما يقول رسول الله ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف».. وأحب أن يتاجر مع الله:

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب، وبشر المؤمنين﴾[1].

وأحب أن يدخل فى دائرة هؤلاء الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة:

---

(١) الصف: ١٠ - ١٣.

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله، فيقتلون ويقتلون وعدًا عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرءان، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[1].

لقد قرأ إبراهيم بن أدهم فيما قرأ قوله تعالى:

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين﴾[2].

وقوله:

﴿وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾[3]

وقوله:

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[4].

وقوله:

﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾[5].

---

(١) التوبة: ١١١

(٢) البقرة: ١٩٠.

(٣) البقرة: ٢٤٤.

(٤) آل عمران: ١٦٩، ١٧٠.

(٥) البقرة: ١٥٤.

وعرف فيما عرف من الأحاديث قوله ﷺ:

تضمن الله لمن خرج فى سبيله، لايخرجه إلا جهاد فى سبيلى، وإيمان بى، وتصديق برسلى، فهو ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة.. والذى نفس محمد بيده، ما كَلْمٌ يُكْلَمُ فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِمَ: لونه لون دم، وريحه ريح مسك.. والذى نفس محمد بيده، لولا أن أشق على المسلمين، ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدًا، ولكن لاأجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى.. والذى نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»[1].

وما رواه أبو هريرة – رضى الله عنه – قال:

– مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته، فقال:

لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال:

«لا تفعل، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله تعالى أفضل من صلاته فى بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟.. اغزوا فى سبيل الله،.. من قاتل فى سبيل الله فَوَاقَ نَاقةٍ وجبت له الجنة»[2].

وقوله ﷺ:

«إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[3].

---

(١) رواه مالك والبخارى ومسلم واللفظ له.. والنسائى – والكلم: الجرح.

(٢) رواه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه. وفواق الناقة: الوقت، بين الحلبتين.

(٣) رواه البخارى..

وأدرك هذه الموازنة الصارخة بين الجهاد والعبادة فيما روى من الأحاديث التالية:

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قيل: يارسول الله، ما يعدل الجهاد فى سبيل الله؟..

قال: «لا تستطيعونه» - فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول:

«لا تستطيعونه».. ثم قال:

«مثل المجاهد فى سبيل الله، كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله»[1].

وسُئل رسول الله ﷺ: أى العمل أفضل؟ -

قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟.. قال: «الجهاد فى سبيل الله».. قيل: ثم ماذا؟.. قال: حج «مبرور»[2].

ويوضح ذلك قوله تعالى:

**﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله، ولا يطئون موطئًا يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين.. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون واديًا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾**[3].

---

(١) البخارى ومسلم واللفظ له..

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى.

(٣) التوبة: ١٢٠، ١٢١.

وإذا أفضى الجهاد إلى الاستشهاد، فإن مصير الشهيد السعادة الدائمة والنعيم المقيم.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

«لما أصيب إخوانكم جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة. تأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب، معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة نرزق، لئلا يزهدوا فى الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب؟.. فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم.. قال: فأنزل الله عز وجل:

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا﴾ إلى آخر الآية»[1].

وعن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال: رسول الله ﷺ:

«للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار - الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها - ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع فى سبعين من أقاربه»[2].

ومحال أن تكون هذه الصورة الإسلامية عن الجهاد واضحة فى ذهن مسلم، إلا ويلقى بنفسه فى معمعان الحرب مجاهدًا فى سبيل الله.

وقد ألقى إبراهيم بنفسه فى الجهاد متجردًا عن كل ماسوى مرضاة الله سبحانه.. ومما رواه من الأحاديث فى ذلك:

---

(١) آل عمران: ١٦٩.

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح غريب.

ما رواه عن هشام بن حسان، عن يزيد الرقاشى، عن بعض عمات النبى ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ:

«شهيد البر يغفر له كل ذنب إلا الدين والأمانة، وشهيد البحر يغفر له كل ذنب والدين والأمانة»[1]..

وما رواه عن حماد بن أبى سليمان قال: «والطعن فى الجهاد نزع من الشيطان».

وروى عن يونس بن عبيد قال: «ما ندمت على شىء ندامتى أن لا أكون أفنيت عمرى فى الجهاد».

وهذه الصورة لشيخ الصوفية الذى ترك الترف والنعيم ولذة الدنيا ونعيمها، وآثر بحبوحة الجنة.. هذه الصورة نقدمها إلى هؤلاء الذين يحبون دائمًا أن يزيفوا الصورة عن التصوف والصوفية.. فيصفونهم بأنهم سلبيون، إننا نحب أن نرى جهاد الذين ينتقدون التصوف، ونحب أن نرى آثارهم فى ساحة الشرف والبطولة، ساحة الجهاد فى سبيل الله»..

* * *

إبراهيم بن أدهم: هل هو:

أعرض عن متاع الدنيا وطيباتها فى سبيل الله؟.. نعم.

متعبد؟.. نعم.

يأكل من عمل يده؟.. نعم.

سخى متصدق؟.. نعم.

---

(١) الحلية جـ٧ ص٥١.

مجاهد لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه؟.. نعم.
هل كملت صورة إبراهيم بن أدهم؟.. كلا
ما الذى ينقصها؟..
ينقصها الحديث عن إبراهيم بن أدهم العالم..

# الفصل الثانى

## المحدث

إلامَ بلغ إبراهيم بن أدهم من العلم قبل توبته؟.. كيف تثقف فى طفولته وشبابه؟ ذلك ما لا ندريه..

ولكن الذى نعرفه: هو أن إبراهيم بن أدهم درس الحديث الشريف إلى الحد الذى جعل مؤرخى الحديث يذكرونه فى كتبهم مقدرين له، وذاكرين من روى عنهم، ومن أخذوا عنه..

ولقد روى عن جماعة من التابعين وتابعى التابعين، وممن روى عنهم: أبو إسحاق: عمرو بن عبد الله السبيعى، الذى رأى علىًّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وسمع من البراء بن عازب رضى الله عنه..

وممن روى عنهم: يحيى بن سعيد الأنصارى، وسعيد بن المرزبان، ومقاتل بن حيان النبطى، ويزيد الرقاشى، ومالك بن دينار.. وروى عن الثورى، وروى الثورى عنه..

أما من روى عنه: فمنهم: خادمه إبراهيم بن بشار، وبقية بن الوليد، وشقيق البلخى، وأبو إسحاق الفزارى..

وفيما يتصل بتقديره والثقة به، فقد قال صاحب التقريب عنه: صدوق: خرّج له البخارى فى الأدب، والترمذى..

وقال النسائى:
ثقة، مأمون، أحد الزهاد..
وقال الدارقطنى:
إذا روى عنه ثقة، فهو صحيح الحديث.
وقال ابن معين:
عابد ثقة.
وقال ابن نمير والعجلى:
ثقة.
وذكره ابن حبان فى الثقات[1].

وما كان لإبراهيم بن أدهم - وهو يحب أن يتأسى برسول الله ﷺ - إلا أن يدرس الحديث، وقد سار فى هذا على نسق المعاصرين له من الصوفية، الذين قرءوا قول الله تعالى:

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾[2].

والدرجة التى بلغها إبراهيم بن أدهم من العلم درجة نفيسة.. إنها درجة تضعه فى مرتبة المحدثين الثقات، بيد أنه يجب أن لا يعزب عن أذهاننا أن إبراهيم بن أدهم عابد زاهد، يطلب العلم من أجل العمل، ويرغب فى العلم من أجل تطبيقه.. يقول صاحب الحلية:

«لم تكن الرواية من شأنه، فلذلك يقل حديثه».

(١) انظر: تهذيب التهذيب، والحلية، والكواكب الدرية.
(٢) الأحزاب: ٢١.

في الإيمان:

لقد سار شيخ الصوفية - فى سلوكه وفى فكره - على أن الإيمان تصديق وقول وعمل. إنه تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح..

ويروى شيخنا فى ذلك، عن عبد الله بن شوذب، عن ثابت البنانى، عن أنس بن مالك رضى الله عنهم أجمعين، عن رسول الله ﷺ قال:

«إن الله تعالى يعذب الموحدين بقدر نقصان إيمانهم، ثم يردهم إلى الجنة خلودًا دائمًا»..

والحديث صريح فى أن الإيمان ليس تصديقًا فحسب..

وما من شك فى أن أساس الإيمان الذى لا يقوم الإيمان بدونه، إنما هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقضاء خيره وشره.. وهذا لا يمارى فيه أحد.. ثم يأتى بعد ذلك البناء.. وقد يرتفع هذا البناء سامقًا فى جو السماء، مشرقًا كضياء النجوم.. وقد لا يرتفع البناء عن الأرض إلا قليلاً، ويكون باهتًا خافتًا..

ولقد أعلن القرآن صراحة أن الإيمان ليس تصديقًا فحسب، وممن أوضح هذا المبدأ الإسلامى الصادق، الإمام البخارى - رضى الله عنه - إنه يقول فى أول كتاب الإيمان:

«باب الإيمان وقول النبى ﷺ: بنى الإسلام على خمس.. وهو قول وفعل ويزيد وينقص.. قال الله تعالى: ﴿ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾.. ، .. ﴿وزدناهم هدى﴾.. ، .. ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.. ، .. ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾.. ﴿ويزداد الذين آمنوا

إيمانا﴾.. وقوله: ﴿أيكم زادته هذه إيمانا، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا﴾ وقوله جل ذكره: ﴿فاخشوهم فزادهم إيمانا﴾.. وقوله تعالى: ﴿وما زادهم إلا إيمانا وتسليما﴾.. والحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان..

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدىٍّ بن عدىٍّ:

«إن للإيمان فرائض وشرائع، وحدودًا وسُننًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص»..

وكتاب الإيمان من صحيح البخارى، ينحو كله نحو هذه الفكرة، وعشرات الأحاديث فيه تؤيدها..

ولقد سبق أن كتبنا فى هذا الموضوع، فى كتابنا «الإسلام والإيمان» فى شيء من الاستفاضة، ومما كتبناه:

وإذا كان هذا رأى البخارى - رضى الله عنه -، فإن أبا الحسن على بن خلف يقول فى شرح صحيح البخارى:

«مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها، أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص».

ويقول عبد الرزاق: حسبما يذكر الإمام النووى فى شرح مسلم:

«سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا: سفيان الثورى، ومالك بن أنس، وعبيد الله بن عمر، والأوزاعى، ومعمر بن راشد، وابن جريج، وسفيان بن عيينة، يقولون:

«الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص»..

وهذا قول ابن مسعود، وحذيفة، والنخعى، والحسن البصرى، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وعبد الله بن المبارك..

ويتابع عبد الرزاق الحديث، فيقول:

فالمعنى الذى يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين، هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح. وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه، لا يستحق اسم مؤمن.. ولو عرف وعمل وجحد بلسانه، وكذب ما عرف من التوحيد، لا يستحق اسم مؤمن.. وكذلك إذا أقر بالله تعالى، وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمنًا بالإطلاق، وان كان فى كلام العرب يسمى مؤمنًا بالتصديق، فذلك غير مستحق فى كلام الله تعالى، لقوله عز وجل:

﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وعلى ربهم يتوكلون.. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون.. أولئك هم المؤمنون حقا﴾[1].

فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته..

وما ذكره عبد الرزاق يؤيده ابن بطال فى باب من قال:

«الإيمان هو العمل» من شرح صحيح البخارى، فيقول:

فإن قيل: قد قلتم إن الإيمان هو التصديق..

قيل: التصديق هو أول منازل الإيمان، ويوجب للمصدق الدخول فيه، ولا يوجب له استكمال منازله، ولا يسمى مؤمنًا مطلقًا..

هذا مذهب جماعة أهل السنة: أن الإيمان قول وعمل..

قال أبو عبيد: وهو قول مالك والثورى والأوزاعى ومن بعدهم من

---

(١) الأنفال: ٢ - ٤.

أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين، من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم.

قال ابن بطال: وهذا المعنى أراد البخارى رحمه الله إثباته فى كتاب الإيمان، وعليه بَوَّبَ أبوابه كلها فقال:

باب أمور الإيمان.

وباب الصلاة من الإيمان.

وباب الزكاة من الإيمان.

وباب الجهاد من الإيمان.

وسائر أبوابه..

وإنما أراد الرد على المرجئة فى قولهم: إن الإيمان قول بلا عمل، وتبيين غلطهم، وسوء اعتقادهم، ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة..

وينهج الإمام الطبرى هذا النهج أيضًا، فيقول:

«الإيمان: كلمة جامعة: الإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل».

ولقد سار شيخنا على نهج أسلافه من أئمة الهدى.. وما كان اجتهاده فى العبادة وفى الجهاد، إلا بعض أعلام إيمانه العميق..

ومن مروياته فى الإيمان:

روى عن محمد بن عجلان، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«المؤمن يسير المؤونة».

وروى عن أبى عبد الله الخراسانى قال: قال عمر بن الخطاب:

«من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون»..

وروى عن عمران بن مسلم القصير قال:

«إن الحكمة لتكون فى قلب المنافق تتلجلج، فلا يصبر عليها حتى يلقيها، فيتلقاها المؤمن فينفعه الله بها»..

وروى عن بحر السقا البصرى قال: حدثنى بعض الفقهاء قال:

«الحياء خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعلم دليله، والعمل فقهه، والصبر أمير جنوده، والرفق والده والبر أخوه»..

وروى عن أبى حازم المدينى قال:

«من أعظم خصلة المؤمن أن يكون أشد الناس خوفًا[1] على نفسه، وأرجاه لكل مسلم».

وروى عن محمد بن عجلان قال:

«المؤمن يحب المؤمن حيث كان»..

**فى السيرة:**

روى إبراهيم بن أدهم، عن أيوب، عن حميد بن هلال، عن أبى بردة قال:

«أخرجت إلينا عائشة كساء ملبدًا، وإزارًا غليظًا، وقالت:

«فى هذا قبض رسول الله ﷺ»..

---

(١) أى خوفًا على نفسه من مقت الله، أو من سوء الخاتمة، فهو فى تقوى دائمة لعل الله يتقبل.

### فى الصلاة على الرسول ﷺ:

وروى عن محمد بن عجلان، عن على بن الحسين، عن أبيه، عن على بن أبى طالب، قال: قال رسول الله ﷺ:

«من صلى علىَّ يوم الجمعة مائة مرة، جاء يوم القيامة ومعه نور، لو قسم ذلك النور بين الخلق كلهم لوسعهم».

### قيمة الأعمال:

روى إبراهيم، وابن جريج، عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن محمد بن إبراهيم التيمى، عن علقمة بن وقاص، عن عمر بن الخطاب، عن النبى ﷺ قال:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»..

يقول صاحب الحلية: هذا من صحاح الأحاديث وعيونها، رواه عن يحيى بن سعيد الجم الغفير.

### الخير:

روى إبراهيم، عن أعين قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول:
«مَنْ هَمَّ بصلاة أو صيام أو عمرة أو حج أو شيء من الخير، ثم لم يفعل، كان له ما نوى».

وروى إبراهيم - بسنده - عن سعيد بن المسيب قال:

«من هم بصيام أو صدقة أو حج أو عمرة أو شيء من الخير، فحال دونه حائل كتب الله أجره».

## فى الوضوء:

روى إبراهيم، عن مقاتل بن حيان، عن شهر بن حوشب، عن جرير بن عبد الله قال:

«رأيت رسول الله ﷺ توضأ ومسح على الخفين»..

وروى عن مقاتل بن حيان، عن شهر بن حوشب، عن جرير بن عبدالله البجلى، أن رسول الله ﷺ توضأ ومسح على الخفين».. فقيل لجرير: بعد نزول المائدة؟.. قال:

«إنما كان إسلامى بعد نزول المائدة»..

قال ابراهيم:

«وكان هذا الحديث يعجبهم»..

## فى الصلاة:

روى ابراهيم عن مقاتل بن حيان، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

«الصلاة فى المسجد الحرام مائة ألف صلاة، والصلاة فى مسجدى عشرة آلاف صلاة، والصلاة فى مسجد الرياضات ألف صلاة»..

وحدث إبراهيم، عن الأوزاعى.. قال المفضل: فلقيت الأوزاعى فحدثنى عن قتادة كتب إليه يذكر عن أنس قال:

«صليت خلف النبى ﷺ وأبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما، فكانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين»..

وحدث إبراهيم، عن أبيه أدهم بن منصور العجلى، عن سعيد بن جبير: «أن النبى ﷺ كان يسجد على كور العمامة»..

وروى إبراهيم، عن محمد بن زياد، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار؟»..

### فى حسن الخلق:

روى إبراهيم، عن محمد بن زياد، عن أبى هريرة، قال:

«جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال:

يا رسول الله!.. ما تفسير حسن الخلق؟ فسكت رسول الله ﷺ.. ثم قال:

إنما تفسير حسن الخلق، ما أصاب من الدنيا يرضى، وإن لم يصبه لم يسخط».

### من هدى النبوة:

روى إبراهيم، عن عباد بن كثير بن قيس قال:

«جاء رجل عليه بردة له، فقعد إلى رسول الله ﷺ.. ثم جاء رجل عليه أطمار له، فقعد.. فقام الغنى بثيابه، فضمها إليه.. فقال النبى ﷺ:

أكل هذا تقذرًا من أخيك المسلم؟.. أكنت تحسب أن يصيبه من غناك شىء، أو يصيبك من فقره شىء؟.. فقال الغنى:

معذرة إلى الله وإلى رسوله، من نفس أمارة بالسوء، وشيطان يكيدنى.. أشهدك يا رسول الله أن نصف مالى له.. فقال الرجل:

ما أريد ذاك؟ فقال النبى ﷺ: لم ذاك؟.. قال: أخاف أن يفسد قلبى كما أفسده»..

## الكرم والعلم:

روى إبراهيم بن أدهم - بسنده - عن أبي هريرة قال:
قال رسول الله ﷺ:

«لاحسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فصرفه فى سبيل الخير، ورجل آتاه الله علمًا فعلمه وعمل به»..

## التواضع:

قال إبراهيم بن أدهم: سمعت محمد بن عجلان يذكر عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«من تواضع لله رفعه الله»..

وروى إبراهيم، عن إبراهيم الصائغ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

«من ترك زينة الدنيا، ووضع ثيابًا حسنة تواضعًا لله عز وجل وابتغاء وجهه، كان حقًا على الله أن يكسوه من عبقرى الجنة فى تخات الياقوت»..

## فى الخير:

روى إبراهيم بن أدهم، عن محمد بن عجلان، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، قال:

«من كظم غيظًا وهو يقدر على إنفاذه، خيره الله تعالى من الحور العين يوم القيامة، ومن ترك ثوب جمال وهو قادر عليه ألبسه الله تعالى أو كساه رداء الإيمان يوم القيامة، ومن أنكح عبدًا لله، وضع الله على رأسه تاج الملك يوم القيامة»..

**كظم الغيظ:**

عن إبراهيم بن أدهم، عن أنس رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال:

«من كظم غيظًا وهو يقدر على إنفاذه، خيره الله تعالى من الحور العين يوم القيامة..» الحديث..

وقال إبراهيم بن أدهم: كان قتادة يقول:

«أفضل الناس، أعظمهم عن الناس عفوًا، وأوسعهم له صدرًا».

**فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:**

عن إبراهيم بن أدهم، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«غشيتكم السكرتان: سكرة حب العيش، وحب الجهل: فعند ذلك لا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر.. والقائمون بالكتاب وبالسنة كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار»..

## فى العلم والعلماء

**فى العلم:**

روى إبراهيم عن شعبة بن الحجاج، قال: أنبأنا أبو إسحاق الهمدانى، عن سعيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود قال:

«لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من علمائهم وكبرائهم وذوى أسنانهم، فإذا أتاهم العلم عن صغارهم وسفهائهم فقد هلكوا»..

### العالم والفتنة:

قال إبراهيم: حدثنى أبو إسحاق الهمدانى، عن عمارة الأنصارى، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الفتنة تجيء فتنسف العباد نسفًا، وينجو العالم منها بعلمه»..

وروى إبراهيم قال: حدثنا مالك بن دينار، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ:

«رأيت ليلة أُسْرِى بى، رجالاً تُقْرَضُ شفاههم بمقاريض من نار.. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟.. قال:

هؤلاء خطباء أمتك، يأمرون بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟»

### فى الدعاء:

روى إبراهيم، عن مقاتل بن حيان، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة، أن النبى ﷺ كان كثيرًا ما يقول:

«اللهم ثبت قلبى على دينك»..

### من الآداب مع النساء:

عن إبراهيم بن أدهم، عن الزبيدى، عن عطاء الخراسانى، يرفع الحديث قال:

«ليس للنساء سلام، ولا عليهن سلام»..

قال الزبيدى: أخذ على النساء ما أخذ على الحيات أن يتحجرن فى بيوتهن..

## من هم أهل الكتاب؟

روى إبراهيم بن أدهم، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال:

«نهى رسول الله ﷺ عن ذبيحة نصارى العرب».

## فى الجنة:

قال إبراهيم: روى الربيع بن صبيح، عن الحسن، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا استقر أهل الجنة فى الجنة، اشتاق الإخوان إلى الإخوان، فيسير سرير ذا إلى سرير ذا، فيلتقيان فيتحدثان ما كان بينهما فى دار الدنيا، ويقول: يا أخي: تذكر يوم كذا.. كنا فى دار الدنيا فى مجلس كذا فدعونا الله، فغفر لنا»..

وقال إبراهيم: حدثنى أبو ثابت، قال: قال النبى ﷺ:

«حسبى رجائى من خالقي، وحسبى دينى من دنياى»..

# الفصل الثالث

# الأخلاق فى عرف شيخ الصوفية

إن الله سبحانه وتعالى وضع قوانين لسعادة الفرد، ووضع نظمًا لسعادة المجتمع، وبين ذلك على ألسنة رسله..

ورسل الله مبشرون ومنذرون: إنهم يبشرون من اتبع هدى الله بالسعادة، ويشرحون هدى الله فى مختلف جوانبه، وينذرون من انحرف عن هديه بالشقاء..

وما دام الإنسان مؤمنًا بالله ورسوله، فإنه لا محالة موقن بصدق المبادئ التى رسمها الله لسعادة الفرد ولسعادة المجتمع، وأنها قوانين صادقة هى أصدق من القوانين الطبيعية فى عالم الكون المادى..

ولو اعتصم الإنسان بالله، واتبع فى نفسه ما رسمه الله له كفرد.. لسعد فى حياته الدنيا وفى الآخرة..

ولو اعتصم المجتمع بالله، واكتفى بالله هاديًا ونصيرًا، لسعد المجتمع وتحقق له الأمن والطمأنينة..

ولكن بشرية الإنسان تتحكم فيه، وتسيطر عليه، وتخرجه بذلك من جو الإلهية المعصوم، لتحبسه فى إطار بشريته، فيرسم لنفسه بنفسه الطريق الذى يسير عليه فردًا، والطريق الذى يسير عليه مجتمعًا..

إن الإنسان بغرائزه متأله.. ومن أجل ذلك انصرف - دون شعور واضح منه - أو مع الشعور الواضح - عن التشريع الإلهى إلى تشريع يشرعه هو..

ومن هنا كانت هذه المذاهب المتعددة فى الأخلاق.. وهل الأخلاق إلا رسم السلوك الفردى فى الحياة، ورسم السلوك للمجتمع فى مسيرته عبر الزمن..

لقد بدأ سقراط يبشر بالسعادة، تتمثل - فيما رأى - فى القناعة، وأن لا يرغب الإنسان إلا فيما هو فى متناول يده.. أى: أن يحدد كل إنسان رغباته بحسب إمكانياته.. وبدأت أوامره للفرد: لا تشته إلا ما تستطيع الحصول عليه، لا تطمح إلا فيما تستطيع تحقيقه، لا تتطلع إلا إلى السهل الميسور، وأخذ سقراط يتدرج مع فكرته التى قادته إلى نصح الإنسان بأن يقلل مطالبه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.. ويقول سقراط:

«إن الكمال لله وحده، والكمال هو أن لا تحتاج إلى شيء، فكلما قلت المطالب والحاجات كان ذلك قربًا من الكمال.. وبالتالى قربًا من الله سبحانه.. وكلما كثرت الحاجات والمطالب، كان ذلك بعدًا عن الكمال، وبالتالى بعدًا عن الله سبحانه».

وعاش سقراط يحاول تحويل فكرته النظرية إلى واقع، فكان يسير حافيًا لأن الحذاء - حسبما رأى - لا حاجة له.. وكان يأكل الغليظ من الطعام، ويلبس الغليظ من الثياب، ويسير كما يقول على مبدأ القناعة..

ومنذ أن ظهرت فكرته إلى المجتمع، عارضه الآخرون، وأعلنوا أن العبد الرقيق، لو عاش كما يعيش سقراط لهرب من سيده فى جنح الليل..

وأفلاطون نفسه - تلميذ سقراط الأمين وضع مذهبًا يغاير مذهب أستاذه:

النعيم، الملذات، الترف؟.. من الذى يعارض ذلك؟.. من الذى يعارض فى طيبات الحياة الدنيا ونعيمها؟.. من الذى يعرض عن متاع الدنيا وما فيها من الخيرات؟..

إن النعيم والملذات جزء - فيما رأى أفلاطون - من السعادة، ولابد لتتحقق السعادة، من أن يضاف إلى ذلك العلم.. فالسعادة شطرها ملاذ، وشطرها الثانى علم - وإذا ألف الإنسان بين العلم والملاذ فى تنسيق منسجم كان سعيدًا..

ويأتى أرسطو فلا يعبأ بكل ذلك، ويرى ويعلن أن السعادة حكمة وعقل، ويتمثل فى التوسط فى كل الأمور..

ويسخر أبيقور من كل ذلك، ويرى أن السعادة تتمثل فى الاستمتاع..

ويسير الزمن، ومع سيره تتعدد المذاهب والآراء، ينقض بعضها بعضًا، ويهدم بعضها بعضًا.. فإذا ما وصلنا إلى العصر الحديث، والنهضة الأوروبية - وهى نهضة تتسم بالمادية - ظهرت مذاهب المنفعة الشخصية، أو المنفعة العامة.. وهذه المذاهب تؤسس السلوك على ما يثمر العمل من منفعة عامة أو خاصة، ولا تضع فى ميزانها الفضيلة أو الخير..

وشقيت الإنسانية بكل ذلك..

بيد أن هذه العصور لم تَخْلُ قط، من صوت ينادى بالرجوع إلى الرحاب الإلهى.. رحاب العصمة والسعادة الحقيقية.. وينطلق هذا الصوت، من النبى؟ ثم يتابعه حواريون، وأصحابه، وأنصاره، والصالحون من بعدهم..

ويتمثل هذا الصوت فى نصوص إلهية، وفى أحاديث شريفة، ومهما تعددت أساليب الدعوة إلى السعادة فى أعراف المؤمنين، فإن المعنى

لا يختلف من عصر إلى عصر، ولا من بيئة إلى بيئة. إن الجميع ينادون:

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم﴾[١].

﴿من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[٢].

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون.. نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون.. نزلاً من غفور رحيم﴾[٣].

﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارًا.. يرسل السماء عليكم مدرارًا.. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾[٤].

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[٥].

---

(١) يونس: ٦٢ - ٦٤.
(٢) النحل: ٩٧.
(٣) فصلت: ٣٠ - ٣٢.
(٤) نوح: ١٠ - ١٢.
(٥) الطلاق: ٢، ٣.

﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرًا﴾[1].

﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾[2]..

«يا غلام: احفظ الله يحفظك.. احفظ الله تجده تجاهك.. إذا سألت فاسأل الله.. وإذا استعنت فاستعن بالله.. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك.. رُفعت الأقلام وجفت الصحف»[3]..

«مَنْ عادَى لى وليًا فقد آذنته بالحرب.. وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها.. وإن سألنى لأعطينَّهُ وإن استعاذنى لأعيذنَّه.. وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»[4]..

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه.. مَنْ كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فَرَّجَ عن مسلم كُرْبَةً فَرَّجَ الله عنه بها كُربة مِنْ كُرَبِ يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[5]..

«مَنْ نَفَّسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من

---

(١) الطلاق: ٤.

(٢) الحج: ٤٠.

(٣) رواه الترمذى.

(٤) رواه البخارى.

(٥) متفق عليه.

كرب يوم القيامة، ومن يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة.. والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»[1].

إن لله سبحانه وتعالى حدودًا.. من خرج عنها فهو الشقى، ومن سار فى إطارها فهو السعيد..

ولقد أخذ ابن أدهم يبشر بالأخلاق كما رسمها الله سبحانه فى محكم كتابه، وعلى لسان رسول الله ﷺ، وكان من ثمرة ذلك مجموعة من النصائح والمواعظ والحكم من أنفس ما يكون..

وهو وإن لم يضعها فى نظام مذهبى على الوضع الحديث، وهو وإن لم ينسقها فى أبواب وفصول، فإن الميزة التى تتسم بها هى بقاؤها مشربة بطابع النضرة، وبطابع الروحانية..

ونحن نحب أن نوردها بطابعها، دون أن ندخل فيها أثر الصنعة المستحدثة، من تنضيد أو ترتيب.. وإن كنا مع ذلك قد قدمنا من آثاره فى ذلك ما يتصل على الخصوص بالهدف..

حدث يونس بن سليمان أبو محمد البلخى، قال:

قرأت كتاب إبراهيم بن أدهم إلى عبد الملك مولاه:

«أما بعد: أوصيك بتقوى الله.. إنه جاء فى كتابك - فوصلك الله - تذكر ما جرى بيننا، فمن رعى حق الله وفر حظه وسلم منه الناس.. ومن ترك حظه ولم يراقب حقه ولع به الناس، وذلك إلى الله، ولا حول لنا ولا قوة إلا بالله.. ثم إن القوم ناس مثلكم، يغضبون ويرضون، فكان

---

(١) مسلم.

الذى يقومهم إليه يرجعون، وبه يقنعون، وبه يأخذون، وبه يعظون.. فأثنى عليهم أحسن الثناء، فاقتدوا بآثارهم وأفعالهم حتى أنتم على ملتهم.. وتمنون منازلهم.. ثم إن الله تعالى أحسن إلينا وأبقانا بعد الجيران، فنعوذ بالله أن يكون إبقاؤنا لشر، فإنه لا يؤمن مكره، والأعمال بالخواتيم.. وإنه من خافه لم يُضِعْ ما يحب، ولم يتكلم بما يشتهى..

وينبغى لصاحب الدين أن يرجو فى الكلام ما يرجو فى الفعل، وأن يخاف منه ما يخاف من الفعل، وذلك إلى الله.. فإن استطعت أن لا يكون عندك أحد هو آثر من الله فراقبه فى الغضب والرضا، فإنه يعلم السر وأخفى، ويغفر ويعذب، ولا منجا منه إلا إليه.

فإن استطعت أن تكف عما لا يعنيك، وأن تنظر لنفسك، فإنه لا يسعى لك غيرك..

إن الناس قد طلبوا الدنيا بالغضب والرضا، فلم ينالوا منها حاجتهم، وأنه من أراد الآخرة، كان الناس منه فى راحة، لا يخدع من ذلها، ولا ينازعهم فى عزها.. هو من نفسه فى شغل، والناس منه فى راحة..

فاتق الله وعليك بالسداد، فإن من مضى إنما قدموا على أعمالهم، ولم يقدموا على الشرف والصيت والذكر.. فإن الله تعالى أبى إلا عدلاً، أعاننا الله وإياكم على ما خلقنا له، وبارك لنا ولكم فى بقية العمر فيما شاء الله..

وأما ما ذكرت من أمر القصر[١]، فلا تشقوا على أنفسكم.. إن جاءكم أمر فى عافية فلله الحمد، وإن كانت بلية فلا تعدلوا بالسلامة.. فإنه من ترك من أمر مالا ينبغى أحق بالجزع منكم.

---

(١) قصر كان له بعث إليه يستشيره فيه.

إنا قد أيقنا أن الناس لا يذهبون بحقوق الناس، والله معط كل ذى حق حقه، وسعى الناس لهم وعليهم، والجزاء غدًا.

فإن استطعتم أن لا تلقوا الله بمظالم!.. فأما ما أظلمتم فلا تخافوا الغلبة، فإن الله تعالى لا يعجزه شيء.. فمن علم أن الأمور هكذا فليكبر على نفسه، وليقبض ما عليها، فإن هذا أشده وأضره.. حسبنا الله ونعم الوكيل. وأما من بقى من بقية الجيران فأقرئهم السلام. فقد طال العهد»..

وقال شريك: سألت إبراهيم بن أدهم عما كان بين علىٍّ ومعاوية فبكى.. فندمت على سؤالى إياه.. فرفع رأسه فقال:

«إن من عرف نفسه اشتغل بنفسه. ومن عرف ربه اشتغل بربه عن غيره»..

وكان يقول:

«إياكم والكبر.. إياكم والإعجاب بالأعمال.. انظروا إلى من دونكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم.. من ذلل نفسه رفعه مولاه، ومن خضع له أعزه، ومن اتقاه وقاه، ومن أطاعه أنجاه، ومن أقبل إليه أرضاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن أقرضه قضاه، ومن شكره جازاه، فينبغى للعبد أن يزن نفسه قبل أن يحاسب، ويتزين ويتهيأ للعرض على الله العلى الأكبر»..

ومن أقواله:

«اشغلوا قلوبكم بالخوف من الله، وأبدانكم بالدأب فى طاعة الله. ووجوهكم بالحياء من الله، وألسنتكم بذكر الله، وغضوا أبصاركم عن محارم الله، فإن الله تعالى أوحى إلى نبيه محمد ﷺ:

يا محمد!.. كل ساعة تذكرنى فيها، فهى لك مذخورة، والساعة التى لا تذكرنى فيها فليس لك.. هى عليك لا لك»..

وعن الحجاج بن مسهر، قال: قال إبراهيم بن أدهم:

«محال أن تواليه ولا يواليك»..

وقال إبراهيم بن بشار: سمعت إبراهيم يقول:

بلغني أن عمر بن عبد العزيز قال لخالد بن صفوان: عظني وأوجز. فقال خالد: يا أمير المؤمنين!.. إن أقوامًا غرهم ستر الله. وفتنهم حسن الثناء، فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك، أعاذنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين، وبثناء الناس مسرورين، وعما افترض الله علينا متخلفين ومقصرين، وإلى الأهواء مائلين.. قال: فبكى، ثم قال:

«أعاذنا الله وإياك من اتباع الهوى».

وقال ابن أدهم:

«إذا بات الملوك على اختيارهم، فبت على اختيار الله لك، وارض به»..

وكان يقول:

«إن للموت كأسًا لا يقوى على تجرعه إلا خائف وجل طائع كان يتوقعه.. فمن كان مطيعًا فله الحياة والكرامة والنجاة من عذاب القبر، ومن كان عاصيًا نزل بين الحسرة والندامة يوم الصَّاخَّة والطَّامة..

وكان يقول:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

ويقول:

«إياكم والغرة بالله، لا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور»..

وسئل عما كان بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

فبكى كثيرًا، ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال:

«من عرف نفسه اشتغل عن غيره».

وقال ابن بشار، سمعت إبراهيم بن أدهم يقول:

«ما بالنا نشكو فقرنا إلى مثلنا، ولا نطلب كشفه من ربنا.. هل يتأتى أن يحب عبد عبدًا لدنياه، وينسى ما فى خزائن مولاه»؟..

قال: ونظر إبراهيم إلى رجل قد أصيب بمال ومتاع ووقع الحريق فى دكانه، فاشتد جزعه حتى خولط فى عقله.. فقال:

يا عبد الله!.. إن المال مال الله، متعك به إذ شاء، وأخذه منك إذ ما شاء، فاصبر لأمره ولا تجزع، فإن من تمام شكر الله على العافية الصبر له على البلية، ومَنْ قَدَّمَ وَجَدَ، ومن تأخر فَقَدَ وَنَدِمَ..

ثم قال:

هكذا كثيرًا: دارنا أمامنا، وحياتنا بعد موتنا، إما إلى جنة وإما إلى نار، وقال إبراهيم بن أدهم:

«بلغنى أن الحسن البصرى رأى النبى ﷺ فى منامه.

فقال:

يا رسول الله عظنى!..

فقال:

«من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان غده شرًا من يومه فهو ملعون، ومن لم يتعاهد النقصان من نفسه فهو فى نقصان، ومن كان فى نقصان فالموت خير له»..

وقال:

«خالفتم الله فيما أنذر وحذر، وعصيتموه فيما نهى وأمر، وكذبتموه فيما وعد وبَشَّرَ، وكفرتموه فيما أنعم وقدر.. وإنما تحصدون ما تزرعون،

وتجنون ما تغرسون، وتكافئون بما تفعلون، وتجزون بما تعملون، فاعلموا إن كنتم تعقلون، وانتبهوا من وسن رقدتكم لعلكم تفلحون»..

وقال:

«الله الله فى هذه الأرواح والأبدان الضعيفة.. الحذر الحذر.. الجد الجد.. كونوا على حياء من الله.. فوالله لقد ستر وأمهل، وجاد فأحسن.. حتى كأنه قد غفر، كرمًا منه لخلقه»..

وقال:

«قلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع.. وكثرة الحرص والطمع تورث كثرة الغم والجزع»..

وقال ابن أدهم:

«على القلب ثلاثة أغطية: الفرح، والحزن، والسرور».

فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، والحريص محروم..

وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والساخط مُعَذَّبٌ..

وإذا سُررت بالمدح فأنت معجب، والعجب يحبط العمل..

ودليل ذلك كله قوله تعالى:

﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾..

وقال إبراهيم:

«اتخذ الله صاحبًا، وذر الناس جانبًا: قل الله ثم ذرهم».

وقال:

«من قال لأخيه أعطنى من مالك، فقال: كم تريد؟.. فما قام بحق الأخوة - ومن دعاه إلى حاجةفقال: إلى أين؟.. فما قام بحق الصحبة»..

وقال:

«طلب الملوك شيئًا ففاتهم، وطلبناه فوجدناه»..

وقال:

«ذهب السخاء والكرم والجود، فمن لم يواس الناس بذلك فليواسهم ببسط الوجه وحُسن الخلق»..

وقال: قال لقمان عليه السلام:

«لا يُعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا فى الحرب، ولا الإخوان إلا عند الحاجة».

وقال:

«من لؤم الرجل أن يرفع يده من الطعام قبل أصحابه»..

وقال:

«حب لقاء الناس من حب الدنيا، وتركهم من ترك الدنيا، ومن أحب الشهوة لم يصدق الله فى أعماله»..

وقال:

«ما أغفل أهل الدنيا عنا، ما فى الدنيا أنعم عيشًا منا!»..

وقال:

«كثرة النظر إلى الباطل، تذهب بمعرفة الحق من القلب»..

وقال:

«كل سلطان لا يكون عادلًا، فهو واللص سواء، بمنزلة واحدة..وكل عالم لا يكون ورعًا فهو والذئب بمنزلة واحدة، وكل من يخدم سوى الله فهو والكلب سواء».

وقال:
«رآنى محمد بن عجلان فاستقبل القبلة ثم سجد، فقال:
«أتدرى لم سجدت؟.. سجدت شكرًا لله تعال حيث رأيتك»..

وقال:
«اذكر ما أنت صائر إليه حتى ذِكْره، وتفكر فيما مضى من عمرك، هل تثق به، وترجو النجاة من عذاب ربك؟ فإنك إذا كنت كذلك شغلت قلبك بالاهتمام بطريق النجاة عن طريق اللاهين الآمنين المطمئنين الذين أتبعوا أنفسهم هواها، فأوقعتهم على طريق هلكاتهم.. لا جرم سوف يعلمون، وسوف يتأسفون، وسوف يندمون»..

﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾ !..
وقال الوليد بن مسلم: حدثنا بعض إخواننا قال:
«دخلنا على إبراهيم بن أدهم فسلمنا عليه، فرفع رأسه إلينا فقال:
«اللهم لا تمقتنا».. وأطرق رأسه ساعة، ثم رفع رأسه فقال:
إنه إذا لم يمقتنا أحبنا.. ثم قال: تكلمنا – أو نطقنا – بالعربية، فما نكاد نلحن.. ولحنّا بالعمل فما نكاد نعرب»..
وقال إبراهيم بن بشار: سألت إبراهيم بن أدهم عن العبادة فقال:
«رأس العبادة التفكر، والصمت إلا من ذكر الله.. ولقد بلغنى حرف – يعنى عن لقمان – قال:
قيل له: يا لقمان ما بلغ من حكمتك؟..
قال:
لا أسأل عما قد كُفيت، ولا أتكلف ما لا يعنينى.. ثم قال:
يا بن بشار!.. إنما ينبغى للعبد أن يصمت، أو يتكلم بما ينتفع به أو ينفع

به من موعظة، أو تنبيه، أو تخويف، أو تحذير.. واعلم أنه إذا كان الكلام مُمَثّلاً كان أوضح للمنطق، وأبين فى القياس، وأنقى للسمع، وأوسع لشعوب الحديث..

يا بن بشار: مَثِّلْ لبصر قلبك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك، فانظر كيف تكون.. ومثل له هول المطلع ومسألة منكر ونكير، فانظر كيف تكون، ومثل له القيامة وأهوالها وأفزاعها.. والعرض والحساب والوقوف، فانظر كيف تكون، ثم صرخ صرخة فوقع مغشيًا عليه»..

وقال إبراهيم بن بشار:

«كتب عمر بن المنهال القرشى إلى إبراهيم بن أدهم وهو بالرملة.. أن عظنى عظة أحفظها عنك.. فكتب إليه:

«أما بعد، فإن الحزن على الدنيا طويل، والموت من الإنسان قريب، وللنفس منه فى كل وقت نصيب، وللبلى فى جسمه دبيب، فبادر بالعمل قبل أن تنادى بالرحيل، واجتهد فى العمل فى دار الممر قبل أن ترحل إلى دار المقر»..

وقال أبو جعفر محمد بن عبد الرحمن السروجى – بسروج –:

«كتب إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه..

أما بعد، فعليك بتقوى الله الذى لا تحل معصيته، ولا يُرْجَى غيره.. واتق الله فإنه من اتقى الله عز وجل عز وقوى وشبع وروى، ورفع عقله عن الدنيا.. فبدنه منظور بين ظهرانى أهل الدنيا، وقلبه معاين للآخرة.. فأطفأ بصر قلبه ما أبصرت عيناه من حب الدنيا، فقذر حرامها، وجانب شهواتها، وأضر بالحلال الصافى منها، إلا مالا بد له.. من كسرة يشد بها صلبه، أو ثوب يوارى عورته، من أغلظ ما يقدر عليه وأخشنه، ليس له ثقة ولا رجاء إلا الله.. قد رفعت ثقته ورجاؤه من كل شىء مخلوق، ووقعت

ثقته ورجاؤه على خالق الأشياء.. فجد وهزل، وأنهك بدنه لله، حتى غارت العينان، وبدت الأضلاع.. وأبدله الله تعالى بذلك زيادة فى عقله، وقوة فى قلبه.. وما أخر له فى الآخرة أكثر.. فارفض يا أخى الدنيا، فإن حب الدنيا يصم ويعمى، ويذل الرقاب، ولا تقل غدًا وبعد غد، فإنما هلك من هلك بإقامتهم على الأمانى، حتى جاءهم الحق بغتة وهم غافلون.. فنقلوا على إصرارهم إلى القبور المظلمة الضيقة.. وأسلمهم الأهلون والولد.. فانقطع إلى الله بقلب منيب وعزم ليس فيه شك، والسلام»..

وعن خالد بن الحارث قال:

«بلغنى أن إبراهيم بن أدهم قال:

لم يصدق الله من أحب الشهرة»..

وقال:

«لا يقل مع الحق فريد، ولا يقوى مع الباطل عديد»..

وحدث إبراهيم بن بشار قال: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول:

«مَنَّ الله عليكم بالإسلام، فأخرجكم من الشقاء إلى السعادة، ومن الشدة إلى الرخاء، ومن الظلمات إلى الضياء.. فَشِبْتُمْ نعمته عليكم بالكفران، ومررتم بالخطأ حلاوة الإيمان، ووهنتم بالذنوب عُرَى الإيمان، وهدمتم الطاعة بالعصيان، وإنما تمرون بمراصد الآفات، وتمضون على جسور الهلكات، وتبنون على قناطر الزلات.. وتحصنون بمحاض الشهوات.. فيا لله تغترون، وعليه يجترئون، ولأنفسكم تخدعون ولله لا تراقبون، فإنا لله وإنا إليه راجعون»..

قال ابن بشار:

وسمعت ابن أدهم يقول:

«أنعم الله عليك فلم تكن فى وقت أنعمه شكورًا، لا يغررك حلمه،

واذكر مصيرك إلى القبور، واعمل ليومك يا أخى قبل حشرجة الصدور»..

وقال إبراهيم بن أدهم: قال لقمان لابنه:

«يا بنى: إن الرجل ليتكلم حتى يقال أحمق، وما هو بأحمق.. وإن الرجل ليسكت حتى يقال له حليم وما هو بحليم».

وقال أبى: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول:

«كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب».

ويقول إبراهيم بن بشار: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول:

«والله ما الحياة بثقة فيُرجَى يومها، ولا المنية تغدر فيُؤْمَنُ غدرها، ففيمَ التفريط والتقصير والاتكال والتأخير والإبطاء؟ وأمر الله جد».

وقال إبراهيم بن أدهم للأوزاعى: يا أبا عمرو كثيرًا ما يقول مالك بن دينار:

«إن من عرف الله تعالى فى شغل شاغل، وويل لمن ذهب عمره باطلاً»..

وروى عبد الرحمن بن الضحاك عن إبراهيم بن أدهم قال:

مكتوب فى بعض كتب الله: من أصبح حزينًا على الدنيا. فقد أصبح ساخطًا على الله، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به أصبح يشكو ربه، وأيما فقير جلس إلى غنى فتضعضع له لدنياه ذهب ثلثا دينه، ومن قرأ القرآن فاتخذ آيات الله هزوًا أدخل النار».

قال إبراهيم بن أدهم:

«لولا ثلاث ما باليت أن أكون يعسوبًا: ظمأ الهواجر، وطول ليلة الشتاء، والتهجد بكتاب الله عز وجل».

وعن طالوت قال: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول:

«ما صدق الله عبد أحب الشهرة».

وقال إبراهيم بن أدهم:

رأيت فى النوم كأن قائلًا يقول لى:

«أو يحسن بالحر المريد أن يتذلل للعبيد وهو يجد عند مولاه ما يريد؟».

وعنه رضى الله عنه قال:

«لا تجعل بينك وبين الله منعمًا، وعد نعمة من غيره عليك مغرمًا»..

وقال:

أثقل الأعمال فى الميزان أثقلها على الأبدان.. ومن وفى العمل وفى الأجر، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير..

وقال إبراهيم بن بشار:

«وقف رجل صوفى على إبراهيم بن أدهم. فقال:

يا أبا إسحاق؟ لم حُجِبَتِ القلوب عن الله؟..

قال:

لأنها أحبت ما أبغض الله.. أحبت الدنيا ومالت إلى دار الغرور واللهو واللعب، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد، فى نعيم لا يزول، ولا ينفد، خالدًا مخلدًا، فى ملك سرمد لا نفاد له ولا انقطاع..

قال: وسمعت إبراهيم بن أدهم يقول:

«إذا أردت أن تعرف الشيء بفضله، فاقلبه بضده.. فإذا أنت قد عرفت فضله.. اقلب الأمانة إلى الخيانة، والصدق إلى الكذب، والإيمان إلى الكفر.. فإذا أنت قد عرفت فضل ما أتيت»..

وقال إبراهيم بن أدهم:

«المسألة مسألتان: مسألة على أبواب الناس، ومسألة يقول الرجل ألزم

المسجد وأصلى، وأصوم وأعبد الله، فمن جاءنى بشىء قبلته.. فهذه شر المسألتين، وهذا قد ألحف فى المسألة».

وكان يقول:

«ما صدق الله عبد أحب الشهرة بعلم أو عمل أو كرم».

وقال فى تفسير قوله تعالى:

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض﴾[1].

«من حب العلو أن تستحسن شِسْعَ نعلك[2] على شسع نعل أخيك».

وصحب رضى الله عنه رجلًا، فلما أراد أن يفارقه قال له الرجل: «إن كنت رأيت فىَّ عيبًا فنبهنى عليه»..

فقال له إبراهيم:

«لم أر فيك يا أخى عيبًا، لأنى لاحظتك بعين الوداد فاستحسنت كل ما رأيته منك، فاسأل غيرى».

وكان رضى الله عنه، يقول:

«اطلبوا العلم للعمل، فإن أكثر الناس قد غلطوا حتى صار علمهم كالجبال، وعملهم كالذر»..

وقال بقية، سمعت إبراهيم بن أدهم يقول:

«عالجت العبادة فما وجدت شيئًا أشد علىَّ من نزاع النفس إلى الوطن»..

---

(١) القصص: ٨٣

(٢) الشِّسْعُ: سير يمسك النعل بأصابع القدم.

وقال مضاء: قال إبراهيم بن أدهم:

«ما قاسيت فيما تركت شيئًا أشد عَلَيَّ من مفارقة الأوطان»..

ومن كلماته:

«منذ عشرين سنة أطلب أخًا إذا غضب عليَّ لم يقل إلا الحق، فلم أجده»..

ومن فوائده:

«إن الرجل الحر الكريم، من تخرج نفسه عن الدنيا، قبل أن يخرج منها»..

وقال:

«لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم، والسرور، ولذة العيش، وقلة التعب، لجالدونا عليه بالسيوف.. طلبوا الراحة والنعيم. فأخطئوا الصراط المستقيم».

ولما قدم سفيان الثورى رضى الله عنه الرملة، أرسل إليه ابن أدهم - رحمه الله - أن تعال فحدثنا، فجاءهم، فقيل له: تبعث إليه بمثل هذا هكذا.. قال: «أردت أن أنظر كيف تواضعه»..

وروى إبراهيم بسنده، عن أبى هريرة، رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله عز وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة - يعنى ريحها»..

وروى - بسنده - عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال:

«إن الله تعالى يعذب الموحدين، بقدر نقصان إيمانهم، ثم يردهم إلى الجنة، خلودًا دائمًا»..

وعن إبراهيم بن بشار قال سمعت إبراهيم بن أدهم يقول:

«الهوى يُرْدى، وخوف الله يشفى.. واعلم أن ما يزيل عن قلبك هواك، إذا خفت من تَعْلَمُ أنه يراك»..

وعن بقية قال:

«كان إبراهيم بن أدهم إذا قيل له: كيف أنت؟.. قال: بخير، ما لم يحمل مئونتى غيرى»..

ومن أقواله:

«أثقل الأعمال فى الميزان، أثقلها على الأبدان.. ومن وفى بالعمل، وفى له بالأجر، ومن لا عمل له، لا أجر له»..

وعن ابن بشار قال:

«أمسينا مع إبراهيم بن أدهم ذات ليلة، وليس معنا شىء نفطر عليه، ولا بنا حيلة، فرآنى مغتمًّا حزينًا، فقال:

«يا إبراهيم بن بشار!.. ماذا أنعم الله تعالى على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة فى الدنيا والآخرة؟.. لا يسألهم الله يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج، ولا عن صدقة، ولا عن صلة رحم، ولا عن مواساة - وإنما يسأل ويحاسب عن هذا هؤلاء المساكين.. أغنياء فى الدنيا، فقراء فى الآخرة.. أعزة فى الدنيا، أذلة يوم القيامة..

لا تغتم ولا تحزن، فرزق الله مضمون سيأتيك، نحن والله الملوك الأغنياء.. لا نبالى على أى حال أصبحنا وأمسينا إذا أطعنا الله عز وجل - ثم قام إلى صلاته، وقمت إلى صلاتى.. فما لبثنا إلا ساعة، إذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفة، وتمر كثير.. فوضعه بين أيدينا، قال: كلوا رحمكم الله، قال: فسلم وقال: كل يا مغموم.. فدخل سائل فقال: أطعمونى شيئًا..

فأخذ ثلاثة أرغفة مع تمر، فدفعه إليه، وأعطانى ثلاثة، وأكل رغيفين، وقال: المواساة من أخلاق المؤمنين»

وقال إبراهيم بن أدهم:

«كان عطاء السليمى إذا استيقظ من الليل، مس جلده مخافة أن يكون قد حدث فى جسده شىء بذنوبه.. ومرض مرضًا خيف عليه الموت منه، فقيل له: أما تشتهى شيئًا نجيئك به؟

فقال: ما أبقى الله عز وجل فى جوفى موضعًا للشهوات»..

## الفصل الرابع

# الطريق

وأول الطريق فى عرف إبراهيم بن أدهم، وفى عرف الصوفية على وجه العموم، إنما هو التوبة.. يقول ابن أدهم:

«إنك إذا أدمت النظر فى مرآة التوبة، بان لك شين قبح المعصية»..

والواقع أن التوبة الصادقة النصوح: هى الابتداء الطبيعى فى الطريق إلى الله - ومن أجل ذلك حث الله ورسوله عليها فى شتى الأساليب..

انظر إلى هذا الأسلوب الرءوف الرحيم، حينما يقول الله تعالى فى حديث قدسى:

«يا عبادى؟.. إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفرونى أغفر لكم»[1].

ولقد فتح الله أبواب رحمته على مصاريعها أمام العاصين، فقال سبحانه:

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[2].

وقال:

﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا، إنه هو الغفور الرحيم﴾[3].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) النساء: ٤٨

(٣) الزمر: ٥٣.

ولقد أعلن رسول الله ﷺ أن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن فقال:

«لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة»[1].

وقال:

«لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته.. فبينما هو كذلك.. إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح:

اللهم أنت عبدى وأنا ربك.. أخطأ من شدة الفرح»[2].

وإن الملائكة لتدعو للتائبين، فى أسلوب كله جمال ورقة ورأفة:

﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلمًا، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك، وقهم عذاب الجحيم.. ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم، وقهم السيئات، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم﴾[3]..

والله سبحانه وتعالى يصلى على عباده ليخرجهم من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) غافر: ٧ - ٩.

﴿هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور، وكان بالمؤمنين رحيمًا.. تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرًا كريمًا﴾[1]..

ولقد كان رسول الله ﷺ يتوب إلى الله ويستغفره فى اليوم مائة مرة:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»[2]..

وعن الأغر بن يسار المزنى - رضى اللّه عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:

«يا أيها الناس.. توبوا إلى الله واستغفروه، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة»[3].

وما كان رسول الله ﷺ يتوب عن ذنب، كلا، وحاشاه، ﷺ، وهو السراج المنير.. وهو النور والرحمة، وهو المعصوم، أن يأتى الذنب..

وما كان رسول الله ﷺ يتوب عن غفلة.. كلا، وحاش ، ﷺ، أن تنتابه الغفلة، وهو مع الله فى صلاته ونسكه، ومحياه ومماته، كما تعبر الآية الكريمة:

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين - لا شريك له وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين﴾[4]..

لم كان يتوب ﷺ؟..

إنه يتوب لأمرين:

أولًا: لأن التوبة أمر بها الله تعالى - فهو ينفذ الأمر الإلهى، وهو بذلك

---

(1) الأحزاب: ٤٣، ٤٤.

(2) البخارى.

(3) مسلم.

(4) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

يطيع الله.. فتوبته عبادة - إنه يتوب توبة عبادة.. والتوبة من أسمى القربات، ومن أجل العبادات.. وذلك أنها تعبر عن الذلة لله، والانكسار له، والخضوع، والتواضع.. وكل ذلك إنما هو الباب الذى يلج فيه الإنسان إلى ساحة الله الرحيمة..

إن الإنسان لا يلج ساحة مرضاة الله بكبر.. كلا، والمتكبر لا مكان له فى الجنة، ولا فى مرضاة الله..

إن الله يقول لإبليس:

**﴿فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾[1]..**

لا مكان فى الجنة لمتكبر، والمتكبر مطرود من رحمة الله..

والتوبة هى المظهر لعدم التكبر، إنها معارضة لموقف المطرودين من الجنة..

لقد كان رسول الله ﷺ يتوب إلى الله توبة عبودية وانكسار..

أما الأمر الثانى الذى كان رسول الله ﷺ يكثر التوبة من أجله، فهو الدخول فى حب الله سبحانه له..

إن الله أعلن أنه يحب التوابين:

**﴿إن الله يحب التوابين﴾..**

ورسول الله ﷺ يحب أن يدخل إلى حب الله له من كل باب يوصل إلى ذلك.. فهو يدخل من باب الإحسان، لأن الله تعالى يقول:

**﴿إن الله يحب المحسنين﴾..**

ويدخل من باب التقوى، لأن الله تعالى يقول:

---

(١) الأعراف: ١٣.

﴿إن الله يحب المتقين﴾..

ويدخل من باب الصبر لأن الله يقول:

﴿والله يحب الصابرين﴾..

وكذلك يدخل من باب التوبة، لأن الله يقول:

﴿إن الله يحب التوابين﴾..

ويدخل من كل باب يؤدى إلى حب الله ومرضاته..

وأول الطريق إذن - كما يرسمه ابن أدهم - هو التوبة..

وإذا صدقت التوبة استتبعت العمل، وكان لها مظاهر، وهذه المظاهر لصدق التوبة كثيرة،، منها مثلاً:

ما رواه عبد الله بن داود.

قال: قال إبراهيم بن أدهم:

«خرجت أريد بيت المقدس، فلقيت سبعة نفر، فسلمت عليهم وقلت: أفيدونى شيئًا لعل الله ينفعنى به.. فقالوا لى:

انظر كل قاطع يقطعك عن الله من أمر الدنيا والآخرة فاقطعه، فقلت: زيدونى رحمكم الله.. قالوا: انظر ألا ترجو أحدًا غير الله، ولا تخاف غيره.. فقلت: زيدونى رحمكم الله.. قالوا: انظر كل من يحبه فأحبه، وكل من يبغضه فأبغضه..

قلت: زيدونى رحمكم الله.. قالوا: عليك بالدعاء والتضرع والبكاء فى الخلوات والتواضع والخضوع له حيث كنت، والرحمة للمسلمين والنصح لهم..

فقلت لهم: زيدونى رحمكم الله.. فقالوا:

اللهم خَلِّ بيننا وبين هذا الذى شغلنا عنك.. ما كفاه هذا كله..

فلا أدرى السماء رفعتهم، أم الأرض ابتلعتهم، فلم أرهم، ونفعنى الله بهم»..

ومنها ما قاله ابن أدهم لرجل فى الطواف:

اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات:

أولاها: تغلق باب النعمة، وتفتح باب الشدة - «والنعمة هنا الترف والكسل والتراخى، والشدة: أن يحمل نفسه على أداء التكليف».

والثانية: تغلق باب العز، وتفتح باب الذل.. «والعز هنا يدخل فيه الكبر والخيلاء والزهو، أما الذل فإنه التواضع والانكسار»..

والثالثة: تغلق باب الراحة، وتفتح باب الجد..

والرابعة: تغلق باب النوم، وتفتح باب السهر..

والخامسة: تغلق باب الغنى، وتفتح باب الفقر، يقول تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾..

والمعنى: أن تغلق باب الغنى عن الله، وتفتح باب الفقر والافتقار إليه..

والسادسة: تغلق باب الأمل، وتفتح باب الاستعداد للموت..

ومنها ما قاله إبراهيم بن أدهم، عن وصية الله لآدم:

«أول ما كلم الله تعالى آدم عليه السلام قال:

أوصيك بأربع، إن لقيتنى بهن أدخلتك الجنة، ومن لقينى بهن من ولدك أدخلته الجنة، واحدة لى، وواحدة لك، وواحدة بينى وبينك، وواحدة بينى وبينك وبين الناس..

فأما التى لى: فتعبدنى ولا تشرك بى شيئًا..

وأما التى لك: فما عملت من عمل وفَّيْتُكَ إياه..

وأما التى بينى وبينك: فمنك الدعاء ومنى الإجابة..

وأما التى بينى وبينك وبين الناس: فما كرهت لنفسك فلا تَأْتِهِ إلى غيرك»..

وتتوالى نصائح إبراهيم بن أدهم فى مظاهر صدق التوبة، فيقول:

«لا تطمع فى الأنس بالله، مع الأنس بالخلق، ولا فى الحكمة مع ترك التقوى».

ويقول:

«علامة نور القلب: أن يكون أكثر هَمِّ صاحبه العبادة، وأكثر كلامه الثناء على الله، وحكايات الصالحين»..

وقال:

«إنما يزول عن قلبك هواكَ، إذا خِفْتَ مَنْ تَعْلَمُ أنه يراكَ»..

وقال:

«إنما حُجبت القلوب عن الله، لكونها أحبت ما أبغضه، فمالت للدنيا، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد»..

إذا صدقت التوبة استتبعت العمل كما قلنا، أما غاية العمل: فإن ابن أدهم ينبه عليها فى هذا المعنى السامى فيما يقوله لأبى زيد الجذامى:

«يا أبا زيد!.. ما ترى غاية العابدين من الله تعالى غدًا فى أنفسهم؟..

قال أبو زيد: الذى أظن سُكْنَى الجنة.. قال: لقد ظننت ظنًّا، والله إنى لأدرى أن أكبر الأمر عندهم أن لا يعرض بوجهه الكريم عنهم»..

وتنتهى التوبة الصادقة لا محالة إلى التقوى:

يروى إبراهيم بن بشار عن إبراهيم بن أدهم قال: قال الله عز وجل:

﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾..

فأعلمك أن بتقواه يستوجب جميل الثواب، وينجو المتقون من سكرات

يوم الحساب، ويؤولون إلى خير باب.. ثم قال: صدق الله:

﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.

## الورع:

وإذا صدقت أثمرت الورع.. يقول شيخنا:

«تب إلى الله ينبت الورع فى قلبك»..

ويساعد على وراثة الورع أمور: يقول ابن أدهم:

«قلة الحرص والطمع.. تورث الصدق والورع.. وكثرة الحرص والطمع تورث الهم والجزع»..

أما تمام الورع، فإن ابن أدهم قد سئل عنه فيما يحكى إبراهيم بن بشار، قال: سُئل إبراهيم بن أدهم: بم يتم الورع؟ قال:

«بتسوية كل الخلق من قلبك، واشتغالك عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جليل.. فكر فى ذنبك، وتب إلى ربك، ينبت الورع فى قلبك، واحسم الطمع إلا من ربك»..

ومما لا شك فيه أن منزلة الورع فى الإسلام كبيرة.. إنه تحرى الحلال.. وهو أن لا يأتى الإنسان شيئًا أو يدعه إلا وهو على يقين من أن ذلك هو مرضاة الله سبحانه.. والآثار فى ذلك كثيرة:

منها ما رواه البخارى وغيره – بسنده – عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحلال بَيِّنٌ، والحرام بَيِّنٌ، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لِعرضه ودينه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه.. ألا وإن لكل ملك

حمى، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه.. ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله.. ألا وهى القلب»..

وعن ابن عباس قال:

تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ:

﴿يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا﴾..

فقام سعد بن أبى وقاص فقال: يا رسول الله!.. ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال: يا سعد! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به..

**الزهد:**

وإذا صدق الورع أسلم إلى الزهد..

ويروى إبراهيم بن أدهم فى ذلك بعض الأحاديث الشريفة.. فيروى عن أرطاة – يعنى ابن المنذر – قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله!.. علمنى عملًا يحبنى الله تعالى عليه، ويحبنى الناس.. قال: أما ما يحبك الله تعالى عليه فالزهد فى الدنيا.. وأما ما يحبك الناس عليه فما كان فى يدك فانبذه إليهم..

ويروى إبراهيم بن أدهم – بسنده – عن يونس، أن رجلًا أتى النبى ﷺ فقال: دلنى على عمل إذا أنا عملته أحبنى الله عز وجل، وأحبنى الناس عليه..

فقال له النبى ﷺ:

«ازهد فى الدنيا يحبك الله وأما الناس فانبذ إليهم هذا يحبوك»

ويصنف ابن أدهم الزهد فيقول:

«الزهد ثلاثة أصناف: فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة: فالفرض: الزهد فى الحرام، والفضل: الزهد فى الحلال، والسلامة الزهد فى الشبهات».

وقد تتساءل عن غاية الزاهدين فيجيبك شيخنا:

«إنما زهد الزاهدون فى الدنيا، اتقاء أن يشركوا الحمقى والجهال فى جهلهم»..

ومن مظاهر الزهد عند ابن أدهم، أنه قيل له:

إن اللحم قد غلا، فقال: أرخصوه.. أى لا تشتروه.

وقد كتبنا عن معنى الزهد عند الصوفية، فى مقدمة الكتاب، ورأينا أن المعنى الذى يفهمه الناس عن الزهد عند الصوفية غير دقيق..

**المحبة:**

من طريف ما يروى عن المحبة بالنسبة لشيخنا ما رواه فارس النجار قال:

«بلغنى أن إبراهيم بن أدهم رأى فى المنام كأن جبريل عليه السلام قد نزل إلى الأرض، فقال له: لم نزلت إلى الأرض؟.. قال: لأكتب المحبين.. قال مثل من؟.. قال: مثل مالك بن دينار، وثابت البنانى، وأيوب السختيانى، وعد جماعات قال: أنا منهم؟.. قال: لا.. فقلت: فإذا كتبتهم فاكتب تحتهم محب للمحبين.. قال: فنزل الوحى: اكتبه أولهم»..

ويفسر إبراهيم بن أدهم قوله تعالى:

﴿فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات﴾[1]..

قال: السابق مضروب بسوط المحبة، مقتول بسيف الشوق، مضطجع على باب الكرامة.. والمقتصد مضروب بسوط الندامة.. مقتول بسيف الحسرة، مضطجع على باب العفو.. والظالم لنفسه مضروب بسوط الغفلة، مقتول بسيف الأمل، مضطجع على باب العقوبة..

ويتحدث إبراهيم بن أدهم إلى الناس فى قوة مبينًا لهم ما يصرفهم عن أن يصلوا إلى درجة المحبة، وهو حديث يبين فى الوقت نفسه الطريق إليها، فيقول:

«ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغض حبيبك، ذم مولانا الدنيا فمدحناها، وأبغضها فأحببناها، وزَهَّدَنا فيها فآثرناها ورغبنا فى طلبها، وعدكم خراب الدنيا فحصنتموها، ونُهيتم عن طلبها فطلبتموها، وأنذرتم الكنوز فكنزتموها.. دعتكم إلى هذه الغرارة دواعيها، فأجبتم مسرعين مناديها، خدعتكم بغرورها ومَنَّتْكُم فانقدتم خاضعين لأمنيتها، تتمرغون فى زهواتها، وتتمتعون فى لذَّاتها، وتتقلبون فى شهواتها، وتتلوثون بتبعاتها.. تنبشون بمخالب الحرص عن خزائنها، وتحفرون بمعاول الطمع فى معادنها، وتبنون بالغفلة فى أماكنها، وتحصنون بالجهل فى مساكنها.. تريدون أن تجاوروا الله فى داره، وتحطوا رحالكم بقربه، بين أوليائه وأصفيائه، وأهل ولايته، وأنتم غرقى فى بحار الدنيا حيارى ترتعون فى زهواتها، وتتمتعون فى لذاتها، وتتنافسون فى غمراتها، فمن جميعها ما تشبعون، ومن التنافس فيها ما تَمَلُّون، كذبتكم والله أنفسكم، وغرتكم ومنتكم الأمانى، وعللتكم بالتوانى، حتى لا تعطوا اليقين من قلوبكم، والصدق من نياتكم، وتتنصلون

---

(١) فاطر: ٣٢

إليه من مساوى ذنوبكم، وتعصوه فى بقية أعماركم، أما سمعتم الله تعالى يقول فى محكم كتابه:

﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾

لاتُنال جنته إلابطاعته، ولاتُنال ولايته إلابمحبته، ولاتُنال مرضاته إلا بترك معصيته، فإن الله تعالى قد أعد المغفرة للأوابين، وأعد الرحمة للتوابين، وأعد الجنة للخائفين، وأعد الحور للمطيعين، وأعد رؤيته للمشتاقين، قال الله تعالى:

﴿وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى﴾.. من طريق العمى إلى طريق الهدى»..

المحب منصرف إلى العبادة:

قال إبراهيم بن أدهم ذات يوم:

«لو أن العباد علموا حب الله عز وجل، لقل مطعمهم ومشربهم، وملبسهم وحرصهم، وذلك أن ملائكة الله أحبوا الله فاشتغلوا بعبادته عن غيره، حتى إن منهم قائمًا وراكعًا وساجدًا منذ خلق الله الدنيا ما التفت إلى مَنْ عن يمينه وشماله، اشتغالاً بالله تعالى وبخدمته»..

أما مواريث المحبة فيوضحها شيخنا قائلًا:

«كنت مارًا فى بعض المدن، فرأيت نَفْسَيْنِ من الزهاد والسَّيَّاحين فى الأرض، فقال أحدهما للآخر:

يا أخى!.. ما ورث أهل المحبة من محبوبهم؟.. فأجابه الآخر، ورثوا النظر بنور الله تعالى، والتعطف على أهل معاصى الله، قال: فقلت له: كيف

يعطف على قوم قد خالفوا محبوبهم، فنظر إلى ثم قال:

مقت أعمالهم، وعطف عليهم ليردهم بالمواعظ عن أفعالهم، وأشفق على أبدانهم من النار.. لا يكون المؤمن مؤمنًا حقًا حتى يرضى للناس ما يرضى لنفسه، ثم غابوا فلم أرهم»..

والمحبون زوار الرحمن، ويصف إبراهيم بن أدهم فى أسلوب جميل، النعيم الذى ينتظرهم فيقول:

«بؤسًا لأهل النار، لو نظروا إلى زوار الرحمٰن قد حُمِلُوا على النجائب يُزفون إلى الله زفًا، وحُشروا وفدًا، ونُصبت لهم المنابر، ووضعت لهم الكراسى، وأقبل عليهم الجليل جل جلاله بوجهه ليسرهم، وهو يقول:

إلىَّ عبادى، إلىَّ عبادى، إلىَّ أوليائى المطيعين، إلىَّ أحبائى المشتاقين، إلىَّ أصفيائى المحزونين.. هٰأنذا.. عرفونى من كان منكم مشتاقًا أو محبًّا أو متملقًا[1] فليتمتع بالنظر إلى وجهى الكريم، فوعزتى وجلالى لأفرحنكم بجوارى، ولأسرنكم بقربى، ولأبيحنكم كرامتى، من الغرفات تشرفون، وتتكئون على الأسِرَّةِ فتتملكون.. تقيمون فى دار الكرامة أبدًا لا تظعنون، تأمنون فلا تحزنون، تصحُّون فلا تسقمون، تتنعمون فى رغد العيش لا تموتون، وتعانقون الحور الحسان فلا تملون ولا تسأمون، كلوا واشربوا هنيئًا، وتنعموا كثيرًا بما أنحلتم الأبدان، وأنهكتم الأجساد، ولزمتم الصيام، وسهرتم بالليل والناس نيام»..

وإذا نظرنا الآن إلى الصفات التى تؤهل المؤمن لحب الله سبحانه، فإن منها: الصبر، والله تعالى يقول: ﴿والله يحب الصابرين﴾..

ومنها التقوى، يقول تعالى: ﴿إن الله يحب المتقين﴾..

---

(١) متملقًا إلى الله، أى يفعل ما يحب الله سبحانه.

ومنها الإحسان، يقول تعالى: ﴿إن الله يحب المحسنين﴾..
ومنها طاعة الرسول ﷺ وحسن اتباعه.
يقول تعالى:
﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾.

* * *

# خاتمة

إن شخصية كشخصية إبراهيم بن أدهم لا يتأتى أن تكون إلا شخصية سعيدة من جانبين:

١ - من جانب المجتمع الذى يعيش فيه، فقد سالمه إبراهيم بن أدهم فى الجانب الذى يثير الأحقاد والخصومات: وهو جانب الدنيا، فسالمه المجتمع، وعاش إبراهيم بن أدهم لا تنغصه منغص من زاوية المادة.

وسار إبراهيم بن أدهم فى الدعوة إلى الله معتمدًا على القدوة الحسنة أكثر من اعتماده على الزجر والتأنيب، وكيل المواعظ المعنفة، فاقتدى به الكثيرون واتخذوه مثلا كريمًا يحتذونه.

وسار إبراهيم بن أدهم فى هدايته للناس على طريق الرفق، فكانت هدايته تتسم بالرفق والرقة، وأخذ الأمور على ما أحب الله للواعظ بقوله لموسى وهارون عليهما السلام، حينما خافا من فرعون أن يفرط عليهما أو أن يطغى:

﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾[1].

ولم يكن إبراهيم بن أدهم يسير فى هدايته للناس على جهل، كلا، وإنما تعلم وتثقف ودرس سيرة رسول الله ﷺ دراسة مستفيضة، وسار على نهجه وفى سننه، متمثلاً قوله تعالى:

---

(١) طه: آية ٤٤.

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾[1].

فلما رأى نفسه على بصيرة من أمر الدين والدعوة أخذ فى الدعوة إلى الله بسلوكه وبقوله الرفيق، وكان من هؤلاء الذين يتابعون الرسل فى الدعوة إلى الله والذين يدخلون فى نطاق من يقول الله تعالى عنهم:

﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله وكفى بالله حسيبًا﴾[2].

وهو لم يبدأ بذلك حتى كان داخلًا فى أتباع رسول الله ﷺ الذين يقول القرآن عن رسول الله وعنهم:

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله، على بصيرة أنا ومن اتبعنى، وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾[3].

وكان إبراهيم بن أدهم يخالط الناس وينبسط إليهم من أجل تحبيبهم فى الهداية، ومن أجل أن يسير بهم إلى أبواب المغفرة.

يقول الفريابى:

سمعت رجلًا قال للأوزاعى: أيهما أحب إليك؟ إبراهيم بن أدهم أو سليمان الخواص؟ قال:

«إبراهيم بن أدهم أحب إلىّ، لأن إبراهيم يخاطب الناس وينبسط إليهم».

---

(١) الأحزاب: آية ٢١.
(٢) الأحزاب: آية ٣٩.
(٣) يوسف: آية ١٠٨.

وقدره المجتمع من أجل ذلك أيضًا، فكانت صلته بالمجتمع صلة صاحب الخير الذى يبشر به أينما حل، يبشر به بسلوكه وبعلمه.

٢ - أما الجانب الآخر الذى جعل منه سعيدًا فى حياته فهو جانب صلته بالله:

لقد دخل إبراهيم بن أدهم المعركة مع الشيطان ومع نفسه وهواه مصممًا على الانتصار بتوفيق الله، ولجأ إلى الله فى استماتة، وفى ذلة وعبودية وانكسار، وسهر الليالى متعبدًا ضارعًا، وصام الأيام والشهور راجيًا، وأحب العبادة وأنس بربه، واستقامت له العبودية، فأعلن عن ثمرة كل ذلك قائلاً فى شكر لله وحمد له:

«نحن فى نعيم لو علمه الملوك لجالدونا عليه بسيوفهم».

ولم يكن هذا النعيم قصورًا، أو جوارى، أو ثراء، أو جاهًا دنيويًّا، أو رئاسة، كلا، وإنما السكينة تنزلت عليه، وهو: ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾.

وهو: ﴿يحبهم ويحبونه﴾.

وهو: ﴿من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[١].

وهو: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم، ولكم فيها ما تدعون، نزلاً من غفور رحيم﴾[٢].

---

(١) النحل: آية ٩٦.

(٢) فصلت: آية ٣٢.

وهو: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم﴾[1].

ولقد قدره معاصروه، وقدره المؤرخون.

يقول صاحب الحلية:

«ومنهم الحازم الأحزم، والعازم الألزم، أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم، أُيِّدَ بالمعارف فوجد، وأُمِدَّ بالملاطف فعبد، كان عن المقطوع والمرذول متباعدًا، وبالمرفوع والموصول متشاغلاً.

كان شرع الرسول نهجه، واختياره عليه السلام مرجعه.

أَلِفَ الميمون الموصول، وخالف المفتون المخذول».

ويتابعه صاحب الكواكب الدرية فيقول:

«الحازم الأحزم، العارف الأعزم، كان عن المقطوع المرذول ذاهلاً، وبالمرفوع الموصول متشاغلاً، وكان شرع الرسول منهاجه، واختياره عليه الصلاة والسلام مزاجه، ألف الميمون الموصول، وخالف المفتون المخذول».ا هـ.

ومات بالجزيرة سنة اثنتين وستين ومائة، وحُمل فدفن بصور، وقبره بها مشهور.

وقال ابن عساكر:

غزا فى البحر فمات فيه، فدفن فى بعض جزائر البحر فى بلاد الروم، رضى الله تعالى عنه، ورحمه رحمة واسعة.

والحمد لله أولاً وآخرًا، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد، النبى الأمى، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) يونس: آية ٦٢، ٦٣.

# فهرس

الصفحة

| رقم الإيداع | | ١٩٩٢ / ٣٩٧١ |
| --- | --- | --- |
| الترقيم الدولى | 977 - 02 - 3696 - 9 | ISBN |

١ / ٩٠ / ٢٤٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)





